دكتورة بنت الشاطئ



عليه الصلاة والسلام

دار الهلال

أمّ النّبى

(عليه الصلاة والسلام)

تأليف

الدكتورة بنت الشاطئ

أستاذة الأدب المساعدة بجامعة عين شمس

دار الهلال

بسم الله الرحمن الرحيم

« إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد »

محمد ، رسول الله

مناجاة

أماه « آمنة » ..

ما تلوتُ من وحى السماء الى وحيدك الحبيب ، حديثه الجهير عن بشريّته :

« انما أنا بشرٌ مثلكم .. »

« سبحان ربى ، هل كنت الا بشرا رسولا ؟ »

الا ذكرتِ أن نبينـا الكريم ، هو الانسان الذى حملتِـه جنينا فى أحشائك ، ووضعتِـه كما تضع كل أنثى من البشر ..

ولا تدبرتُ معنى قوله تعالى لابنك الخالد :

« وما أرسلنا من قبلك الا رجالا »

الا تنبهت الى أن لهؤلاء القادة الرسل أمهات ، وأن المرأة التى أنجبت البطل فى كل صورة ، وفى كل حين ، هى التى قامت عن « عيسى بن مريم » الذى قالوا انه اله ، وهى التى جاءت « بمحمد بن آمنة » رســول الله وخاتم النبيين

وهذا صوت وحيدك يملأ سمع الزمان على مر الآباد :

« انما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القـديد » فيحقر كبرياء الأباطرة والملوك ، ويسمو بأمومتك الى أفق لا يتطاول اليه ترف الغنى ولا جاه المادة ، اذ يجعل منك أيتها الأنثى الوديعة المتواضعة ، والأم الطيبة الرءوم ، مبعث أنسه ، وروح انسانيته ، وآية محبته ، وموضع اجلاله واعتزازه

***

أماه « آمنة » ..

هو أبدا مجد الأمومة الذى خلّد واهبات الحياة على الدهر ، وصانعات

التاريخ منذ الأزل والى الأبد ، وقد تتوجك وحيدك العزيز بتاج سماوى من هذا المجد الأزلى الأبدى ، حين هتف قائلا :

« الجنّة تحت أقدام الأمهات »

وهو أبدا فخر الأنوثة التى حَمَت سرّ الوجود فى هـذا الكون ، وحفظت حياة الانسانية فى هذه الدنيا ، اذ حملت أجنّة البشرية وهَناً على وهن ، فأى شعور غامر كان يملأ قلب ولدك ، حين قال لمن سأله عن أحق الناس باكرامه : أكرم أمك ، ثم أكرم أمك ، ثم أكرم أمك ، ثم.. أباك ؟ ! وحين جاءه أحد أصحابه يبتغى أن يخرج مجاهـدا معه ابتغاء وجه الله واليوم الآخر ، فلما عرف الرسول أن أمه حية ، قال له : ويحك ! الزم رِجلَها فثَمّ الجنة ؟ !

***

أماه « آمنة » ..

عن مجد الأمومة فيك ، وبطولة الأنوثة منك ، جئت أتحدث اليوم عن سيدة الأمهات التى جادت على الانسانية بوليد وحيـد ، حملت الملايين رايته فى أرجاء الأرض على مـرّ الزمن ..

يتيم ، اعتز به الآباء الصِيد والأصولُ الأمجاد ..

فقير ، حييت باسمه الـدُنى وفاضت الخيرات

وماذا كنت تبلغين من ذلك يا أماه ، لو أنكِ كنت ملكة متوجة ، أو فارسة مغوارة ، أو عالمة مبتكرة ، أو زعيمة قائدة ، ثم لم تلدى «محمدا : رسول لله » ؟..

وأى عمل لك يا أماه أجل وأمجد ، من انكِ كنت المنجبة لهذا الرجل الرجل ، ووالدة ذلك الرسول البطل ؟..

***

وهأنذى أقف خاشعة أمام سيرتك ، وقد حفّت بها من أمومتك أضواء

باهرة السنا ، فيكاد جلالك يثنيني عن اطالة النظر اليك ، والحديث عنك ، لولا أن أعود فأذكر أنك أم « محمد » الذى أصرَّ على الاعتراف ببشريته ، فكان هذا الاعتراف منه ، آية عظمتك وسر خلودك !



الـكتاب الاول

سيدة الأمهات

١ ـ هذه السيرة ومصادرها
٢ ـ انوثة وامومة
٣ ـ امهات الانبياء

هذه السيرة ومصادرها

بدأتُ هـذه المحاولة فى درس سيرة السيدة « آمنة » وأنا أعى أتم الوعى ، نقصَ المصادر والأخبار التى تحدث عن تلك الأم المنجبة ، لكنى لم أجزع لذلك ، اذ قـدّرت أنى انما أحدث عن والدة الرسول العظيم ، وأم البطل الذى هو فى حساب الحياة صفوة جنسه وخلاصة قومه ، ومن ثم مضيت ألتمس ملامحها ، فى صورة ابنها العظيم الذى آوته أحشاؤها ، وغذاه دمها ، واتصلت حيـاته بحياتها ، فلقـد كان « محمد » هو الأثر الجليل الذى خلفته « آمنة » ، فليس بعجيب أن أراها فى ضوء هذا الأثر ، وأن يكون فهمى لها عن طريق تأمل عملها الفذ ، ممثّلا فى ولدها العظيم

فهذا الحديث عن « آمنة بنت وهب » يتخذ من شخصية ابنها مصدرا هاما نستعين به على فهم شخصيتها ، وذلك بما تركت فيه من أثر واضح ، وما نقلت اليه من دماء قومها الكرام الذين تنقل فى أصلابهم جيلا بعد جيل ، وما حملته اليه من خصائص الأرومات الأولى التى اعتز بالانتساب اليها فى مثل قوله عليه الصلاة والسلام ، ان الله اختاره من كنانة ، واختار كنانة من قريش ، واختار قريشا من العرب ، فهو خيار من خيار من خيار

أو قوله :

« أنا ابن العواتك من سُلَيْم »

***

ثم كان لى الى جانب هذا المصدر ، ما وعى التاريخ من أخبـار آباء « آمنة » وأجدادها نسـاء ورجالا ، وما حفظ لنا من طابع البيئة التى نشأت فيها ، وما عرفت الحياة من صورة الأنوثة والأمومة عند قومها ، وما اطمأن اليه العلم من ترابط الأسباب وتناسق الأصول ومجرى الوراثة ، وفى هـذا كله ما يجلو شخصية « آمنة » كما عرفتها دنياها ، وصنعتها بيئتها ووراثتها وظروفها ..

ذلك أن « آمنة » لم تكن سوى ثمرة للبيئة والوراثة ، قد جرت فى عروقها دماء الأصول الأولى ، ونمتها العوامل التى تركت طابعها الخاص فى كل ما أحاط بها من ظروف الزمان والمكان

أجل هى ثمرة طبيعيــة ، يستطيع الدارس المحقق أن يلتمس جذورها الأصــيلة الممتــدة فى أعماق منبتها وأعراق آلها ، وأن يستبين ملامحها ومعارفهــا فى الهواء الذى تنفسته والجو الذى عاشت فيه ، فاذا لديه تفسير مقبول لأكثر ما حسبه بعض النــاس خوارق مباغتة ومفــاجآت عجيبة ، ناسين أنها أم الرسول الكريم الذى أصرّ على الاعتراف ببشريته ، ولم يكن ليرضيه قط أن تبرأ أمه من هذه البشرية ، أو أن يضاف اليها ما يشذ بها عن سنة الله التى فطر الناس عليها ، أو أن تلون شخصيتها بما يجعل ولدها كائنا عجيبا لم ينمه عرق ، ولا أمدّه أصل ، ولا غذته وراثة ، ولا نهضت به بيئة ..

***

على أنى حين مضيت فى تتبع الأصول البعيدة لآمنة ، ولمح المشخصات الواضحة لدنياها ، ألفيتُ الى جانب ما يطمئن اليه العلم من مجرى الوراثة وفعل البيئة ، حشدا من آثار أخرى ليست من ذاك الصنف الأول ولا هى من واديه .. آثار يحرص كثير من الدارسين على تجاهلها ، اذ يرون فيها طابع الخيال وظل الوضع ، وفاتهم أن ينتبهوا الى دلالتها الاجتماعية التى لا تكذب ، والتى تمد الدارس بأضواء تكشف عما وراء التاريخ المــادى من عالم نفسى ، وتكمل ما تتركه الاخبار من ثغرات فى فهم طبيعة المجتمع

تلك الآثار ، هى ما خلفــه لنا قوم رأوا فى السيدة « آمنة » صورة الكمال المطلق لأم رسول ، فتحدثوا عنها بوحى من قلوبهم المعجبة ، ودافع من وجدانهم المؤمن ، ما كذبوا فى ذلك ولاماتوا ، ولا خدعوا ولاخانوا ..

ولغيرهم من أهل العلم والتحقيق أن يقولوا ما يأذن به الدرس المنهجى ، وراء ســور الوجدان ، وبعيــدا عن عالم القلوب ، ودون أفق الحب والايمان ، ولا بأس على هؤلاء ولا أولئك ، مما يقال هنا باملاء العقل

والعلم ، أو يقال هناك بلسان العاطفة والايمان ..

وكذلك يلتقى العلم والفن ، لا يعدوان على حقيقة ولا يجوران على صواب ولا يُتَّهمان بكذب ، فاذا قال الدارس عن « آمنة » ما قال ، مستنبئا الوراثة ، مستلهما البيئة ، متتبعا المؤثرات والآثار فى الأصول والفروع ، فهو محق صادق غير متهم ..

واذا قال فيها المحب الوامق والمؤمن الواثق ما قال ، بلسان الوجدان ، مفسرا بذلك ما يشعر به من عظمتها ، معبرا عن صورتها عنده ، وحقيقتها فى وزنه ، وجوهرها فى قلبه ، فهو صادق محق كذلك ، لايسىء الى الواقع الخارجى فى شىء ، لأنه ليس من أهل هذا الواقع ، بل هو يحدث عن عالم قلبه ويعبر عن دنيا وجدانه ، ويترجم عن تفسيره لما بهره من عظمة ، وما عشق من بطولة ، وما أحس من الانفعال بجمال تراه بصيرته ، وجلال يهز مشاعره ، وتلك دنياه لا يشركه فيها أحد ، ولا يزاحمه فى آفاقها أحد ، مهما تتسع وتمتد ، أو تبعد وتترامَ ..

***

وأحسبنى بهذا القول ، قد مهدت لما أريد أن أقرره هنا ، من عنايتى البالغة بكل ما قيل عن السيدة « آمنة » ، لم أقتصر فى ذلك على الخبر التاريخى الثابت ، بل لم يكن اهتمامى به أكثر من اهتمامى بروايات أخرى قد يقرؤها الدارس بعين العلم فيَجِم ، أو يسمعها المؤرخ بأذُن التحقيق فيبرم ، وينسيه عالمه الواقعى ما وراءه من عوالم أخرى لأناس آخرين ، قد تمثلوا شخصية « أم الرسول » كما شاءت قلوبهم المحبة ، وكما رسمته لهم قواهم الفنية وطاقاتهم التعبيرية وتأملاتهم الروحية . فقدموا لنا بذلك كله ، صورة « آمنة » فى نفوسهم ، وفسروا بذلك تاريخ الحياة كما فهموه وأدركوه

وما أحسب المؤرخ الذى وهب حياته كلها للدرس المحقق ، يستطيع أن يجرد شخصية « آمنة » من كل هذا ، أو يزعم لنفسه أو للناس أنه قادر على أن يفهمها حق الفهم ، من غير أن يعرف كيف نظر أهل عصرها

انيها ، وكيف تَمثّلها أبناءُ جيلها ، ثم كيف تنقلت صورتها فى الأدهار وسارت على الأجيال

فأنباء « آمنة » فى زوجيتها ، وحملها ، ووضـعها ، وأمومتها ــ تلك الأنباء التى يحسبها بعض المحدثين من أساطير الأولين ــ تصور للمؤرخ حيـاة هـذه الأم فى نفوس جيلها ومخيـلة الذين جاءوا بعدها ، وبهذا التصوير ، يجد تفسيرهم لعناصر حيـاتها ، ومنه ينتزع تحليلهم النفسى لشخصيتها .. وأنّى لمؤرخ أن يستغنى عن ذلك فيما يعانى من تاريخ محقق ؟

***

وأرانى الآن قادرة على أن أبسط منهجى فى فهم سـيرة « آمنة بنت وهب » بعد أن هيأت القارىء لفهم هذا المنهج : لقد بدأت أول ما بدأت بدرس بيئتها وبيتها ، وتتبع الأصول البعيدة والملامح العامة للحياة العربية، وحياة المرأة حينـذاك ، لأجد من ذلك ما يطمئن اليه الحق التاريخى فى حياة « آمنة بنت وهب »

وثانى الأمرين مما عمدت اليه فى هذه السيرة ، هو ما يحلو لكثير من الدارسين ــ والمستشرقون منهم بخاصة ــ أن يسموه أساطير وأقاصيص ، ذلك أنى وجدت فى تلك الأساطير ، صـورة أحداث التاريخ فى نفوس الذين عاشوا فى بيئة أم الرسول ، أو اتصلوا بها وتمثلوها . وكان هـذا الفهم النفسى للأحداث ، معينا لى على تبين شخصية « آمنة » وتقديرها تقديرا يكشف عن ملامحها ويفسر آثارها .. كما كان الذى رووه من أحلام « آمنة » ورؤاها ، أو تصوروه من أمانيها وآمالها ، صورا نفسية بشرية ، تمثلها المتمثلون لأمومتها وحيويتها ، وتلك مادة للتاريخ الحق ، وان بدت فى صـورة الخيال المجنح ، والسرد القصصى الذى لا أراه يجور على الحقيقة بحال

أنوثة وأمومة

« أنا ابن العواتك من سليم »
(حديث شريف)

لا نرى أن نمضى فى الحديث عن احدى صانعات التاريخ قبل أن نلم بمكانة الأم فى الجزيرة الى عهد « آمنة »

ذلك أنه قد شاع فينا أن المرأة فى الجاهلية قد كانت ــ فى خير حالاتها ــ متاعا للرجل ، وأنها عانت من صنوف الاستعباد والاستبداد ما أنقذها منه الاسلام . وعلى الرغم مما نقل الينا من أخبار تدل على ما كان للمرأة العربية فى الجاهلية من مكانة مرموقة ومآثر لم تضع مع السنين والقرون ، الا أن تلك الأخبار لم تذع فينا كما ذاعت الأخبار الأخرى التى تتحدث عن وأد البنات وانتقال الزوجات بالميراث من الآباء الى الأبناء ، وما الى ذلك من مظاهر الضعة والهوان

***

ولا نقول اننا سنحاول هنا أن ننصف المرأة العربية فى تلك العصور القديمة ، فالحق أن المؤرخين والرواة القدامى لم يضنوا عليها بتسجيل ما تناقلته الأخبار من مآثرها .. وكل عملنا هنا ، أن نختار من ذاك الذى سجّلوه ، بعض ما يصحح فكرتنا الشائعة عن الأنوثة والأمومة فى الجزيرة قبل الاسلام ، وأن نضع الى جانب الروايات المشهورة عما لحق بها من ظلم وعسف وهوان ، بعض ما تحدثوا به عن منزلتها الرفيعة ، وعزتها التى صينت بالدماء ، وافتديت بالمهج والأرواح ..

ويعنينا هنا بوجه خاص ، ما اختص بالأمومة أو كان منها بسبب ، لنلتمس منه ضوءا يكشف عما « لآمنة » من فضل فى انجاب خاتم الرسل والأنبياء ، وما كان لها من أثر فى تكوين ولدها الخالد الذى قال معتزا

بأمهاته فى الجاهلية :

« أنا ابن العواتك من سليم »

***

يروع الذى يتصل عن قرب بما كتب الأقدمون عن الجزيرة ، حرص العرب فى جاهليتهم البعيدة على كرم النسب وطهارة الأرحام ونقاء الأصول . قال حكيمهم « أكثم بن صيفى » :

« لايفتننكم جمال النساء عن صراحة النسب ، فان المناكح الكريمة مَدرَجة الشرف »

وقال شاعرهم (١) :

وأولُ خبثِ الماء خبثُ ترابه وأول خبثِ القوم خبثُ المناكح

ونقل « أبو عمرو بن العلاء » عن أحدهم :

« لا أتزوج امرأة حتى أنظر الى ولدى منها » . قيل له : « كَيف ذاك ؟ » قال : « أنظر الى أبيها وأمها فانها تجرّ بأحدهما »

وقال قائلهم لبنيه (٢) :

«قد أحسنت اليكم صغارا وكبارا وقبلأن تولدوا » . قالوا : « وكيف أحسنت الينا قبل أن نولد ؟ » . فأجاب : « اخترت لكم من الأمهات من لا تسبون بها »

ومثله ما أنشده « الرياشى » :

وأول احسانى اليكم تخيّرى لماجدة الأعراق باد عفافها

ولعل هذا الحرص منهم على كرم النسب ، يفسر لنا كراهتهم للسباء .

حدثوا أن « فاطمة بنت الخرشب » رمت بنفسها من الهودج حين أسرت ، فماتت لساعتها وهى تردد المثل :

« المنية ولا الدنية »

---

(١) ابن قتيبة : عيون الاخبار ـ ٢/٤ ط دار الكتب

(٢) ابن قتيبة : عيون الاخبار : ٣/٤

وربما تزوج الرجل بسبيته وأنزلها من نفسه وقومه أكرم منزلة ، فلم ينفِ ذلك عنهـا مرارة الأسر . من ذلك ما رووه من أن رجلا من العرب استبى امرأة فولدت له سبعة بنين ، ثم قالت له يوما : « أزرني أهلي ليذهب عني ذل السباء »

ففعل .. فأبت أن تغادرهم مع فرط تعلقها بزوجها وثنائها عليه

وكذلك فعلت « سلمى الغفارية » زوج « عروة بن الورد العبسى » وكان شاعرا بطلا كريما ، أصاب « سـلمى » يوم خرج « بنو النضير » يريدون « خيبر » ، بعد أن أجلاهم الرسـول صلى الله عليه وسلم عن « المدينة » . وكانت « سلمى » ذات جمال ، فأعتقها « عروة » وتزوجها وأقامت عنده بضع عشرة سنة ، ولدت له فيها أولادا ، وحلت من نفسه وقلبه أعز مكان ، اذ كان شديد الحب لها والحرص على ارضائها ، لكن ذلك لم ينسها مذلة السباء ، فقالت له يوما : « ألا ترى ولدك يعيّرون بأمهم ويسمون بني الأخيذة ؟ » قال : « فماذا ترين ؟ » قالت : « أرى أن تردني الى قومي حتى يكونوا هم الذين يسلمونني اليك ! »

فاستجاب لها ، وهو لايشك فى أنها سعيدة راضية ، صادقة الرغبة فى العيش معه

وخرج بها فحج ، ثم عرج على أهلها زائرا ، فتحايلوا عليه بالخمر حتى رضى أن يخيروها بين الاقامة فيهم والعودة معه ، فاختـارت « سلمى » أهلها وهى تقول :

ياعروة ، أما انى لأقول فيك ــ وان فارقتك ــ الحق : والله ما أعلم امرأة من العرب ألقت سترها على بعل خير منك وأغض طرفا وأقل فحشا وأجود يدا وأحمى لحقيقة . لكن ، ما مرّ عليّ يوم منذ كنت عندك الا والموت فيه أحب اليّ من الحياة بين قومك ، لأني لم أشأ أن أسمع امرأة من قومك تقول : قالت أَمَة عروة كذا وكذا . والله لا أنظر الى غطفانية أبدا ، فارجع راشدا الى ولدك وأحسن اليهم »

فانصرف عنها حزينا حسيرا ، وهو يقول قصيدته التى مطلعها البيت المشهور :

سقونى الخمر ثم تكنفونى (١) عـداةُ الله من كذب وزور

***

ولا أكاد أعرف — فيمـا قرأت — أُمة قديمة بلغت كرامة الأمومة عندها ما بلغته عند العرب ، وقد روى « المبرِّد » فى « الكامل » (٢) أبيـاتا للسلـيك بن السـلكة ، تعبر عمـا كان يرهقـه ويضنيـه من وجود اماء قد أذلهن الرق وأزرى بهن التبذل ، مع قصور يده عن افتدائهن جميعا ، كرامة لأُمِّه — وكانت جارية حبشية — فذلك قوله :

أشاب الرأسَ أنى كلَّ يوم أرى لى خالة بين الرحـال
بشق علىَّ أن يلقين ضـيما ويعجز عن تخلصـهن مالى

***

ولأبناء العقائل الكريمات حديث — أشبه بالقصص — عن حرصهم على عزة الأمومة وصيانتها بالمهج والأرواح ، ولعله يكفينا هنا أن ننقل مثلا واحدا ، ما رواه صاحب (الأغانى) من أن «عمرو بن هند : ملك الحيرة» قال يوما لجلسائه :

« هل تعلمون أحدا من العرب تأنف أمه من خدمة أمِّى ؟ »

فقالوا : « نعم .. أم عمرو بن كلثوم » قال : « ولم ؟ » . قالوا : « لأن أباها مهلهل بن ربيعة ، وعمها كليب وائل أعز العرب ، وبعلها كلثوم ابن مالك أفرس العرب ، وابنها عمرو بن كلثوم ، وهو سيد قومه وليث كتيبتهم »

فأرسل « عمرو بن هند » الى « عمرو بن كلثوم » يستزيره ، ويسأله أن تزور أمه أمه ، فأقبل « ابن كلثوم » من الجزيرة فى جماعة من بنى تغلب ، وأقبلت « ليلى » فى ظعن منهم

---

(١) الاغانى ج ٣ ، ص ٣٨ ، طبعة دار الكتب،والقصة مبسوطة فى « الروض الانف : ١٨٠/٢ » وفيها : كان يقال من قال حاتما اسمح العرب فقد ظلم عروة بن الورد
(٢) بغية الأمل ، ٢٥١/١

وأمر « عمرو بن هنـد » برواقه فضرب فيما بين الحيرة والفرات ، وأرسل الى وجوه أهل مملكته فحضروا ، ودخل « ابن كلثوم » رواق الملك ، وأُدخلت « ليلى » الى « هند » فى قبة الى جانب الرواق ، وكان بين الاثنتين صلة نسب

فالوا : وقد كان عمرو بن هند أوصى أمّه أن تنحى الخدم اذا دعا بالطّرَف ، وتستخدم « ليلى » ، فلما فعل قالت « هند » لزائرتها بعد أن اطمأن بها المجلس :

ــ ناولينى يا ليلى ذلك الطبق

فقالت « ليلى » فى نفور وأنفة :

ــ لتقم صاحبة الحاجة الى حاجتها ..

فأعادت « هند » عليها وألحت ، واذ ذاك صاحت ليلى :

ــ وا ذلاه يا لتغلب !

فسمعها ابنها ، فثار الدم فى وجهه ، وانتفض انتفاضة المحموم ، وقال :

ــ لا ذل لتغلب بعد اليوم !

ثم نظر حوله فاذا سيف معلق بالرواق ليس هناك سيف غيره ، فوثب اليه وأطاح به رأس « ابن هند »

***

والروايات تقول انه أنشد يومئذ معلقتـه المشهورة مرتجلا ، وفيها يصيح بالملك :

أبا هنـد فلا تعجل علينـا وأنظرنا ، نخبـرك اليقينـا
بأنا نورد الرايات بيضـا ونصـدرهن حمرا قد روينا
ألا لا يجهلَنْ أحدٌ علينا فنجهـل فوق جهل الجاهلينا
بأى مشيئة « عمرو بن هنـد » تطيع بنا الوشاة وتزدرينا ؟
تهددنا ، وأوعدنا ، رويدا ! متى كنـا لأمك مقتوينـا ؟
على آثارنا بيض حسـان نحاذر أن تقسَّم أو تهونا

اذا لم نحمهن فلا بقينا لشىء بعدهن ولا حيينا

ثم لم تكتف « تغلب » برأس الملك ثمنا لكرامة السيدة الأم ، بل قام « مرة بن كلثوم » ـ أخو عمرو ـ بعد ذلك وقتل ولد النعمان ، وأخاه ، ليطفىء جذوة من الغضب هاجها تعمّد المهانة لأمّه

وظلت « تغلب » تعظم قصيدة « عمرو » ويرويها صغارهم وكبارهم على تتابع الأجيال ، كما ظل مقتل « عمرو بن هند » مفخرة لهم يباهون بها ما عاشوا ..

قال الفرزدق :

* قومى هم قتلوا إبن هند عنوة *

وقال صريم التغلبى :

لعمرك ما عمرو بن هند وقد دعا
لتخدم « ليلى » أمّه بموفق

فقام «ابن كلثوم» الى السيف مصلتا
فأمسك من ندمانه بالمخنّق

وجلله « عمرو » على الرأس ضربة
بذى شُطَب صافى الحديدة رونق

وقال « الأخطل التغلبى » لجرير يفخر « بعمرو ومرة : ابنى كلثوم » :

أبنى كليب ان عَمّى اللذا قتلا الملوك وفككا الأغلالا

الى مثل ذلك الحد ، بلغت غيرتهم على الأمومة ، وما نمنع أن تكون حادثة « ليلى أم عمرو » من أقاصيص السمار واضافات الرواة ، لكنها لن تفقد ـ فى أى وضع رضيناه لها ـ دلالتها الاجتماعية على ما كان من عزة الأمومة فى الجاهلية

***

وقد شهد الرواة ـ الى جانب هذا ـ للأم العربية بالطموح ، ولم يجحدوا ما كان لها من نصيب فى عظمة بنيها ، فهم يذكرون ـ فيما روى

« القــالى » (١) أن « أم الفضــل بنت الحارث » كانت ترقص ولدها « عبد الله بن عباس » قائلة :

ثــكلتُ نفسى وثــكلتُ بــكرى
ان لم يسُد فهــرا وغير فهــر
بالحسب العــدِّ وبــذل الوفــر
حتى يُوارَى فى ضريــح القبــر

وأن « ضباعة بنت عامر » كانت ترقص ولدها « المغيرة بن ســلمة » بقولها :

نمى به الى الذرى هشــــام
قــــوم" وآباء" له كرام
جحــاجح ، خضــارم ، عظــام
من آل مخــزوم ، هم الأعــلام
الهــامة العليــاء والســنام

ويعترفون بأن « حاتما الطائى » انما ورث الجود عن أمّه ، ويروى (٢) صاحب الأغانى أنها كانت لا تبقى على شيء ، فلما رأى اخوتها اتلافها أمسكوا عنها مالها ، حتى اذا ظنوا أنها وجدتْ ألم ذلك ، أعطوها طائفة من ابلها ، فجاءتها امرأة من « هوازن » تسألها على ما تعودت أن تفعل كل سَنة ، فقالت لها : دونك هذه الابل فخذيها ، فوالله لقد عضنى الجوع فلن أضيع سائلا :

لعمرك قِدما عضنى الجوع عضــة
فآليــت ألا أمنــع الدهر جائعــة
فقولا لهذا اللائمى : اليوم أعفنى
وان أنت لم تفعل ، فعَضَّ الأصــابعا

---

(١) الامالى ١١٨/٢ ط بولاق

(٢) ٩٣/١٦ — وانظر كذلك عيون الاخبار لابن قتيبة : ٣٣٦/١

فماذا عساكم أن تقولوا لأختكم
سوى عذلكم أو عذل من كان مانعا ؟
وماذا ترون اليوم الا طبيعة
فكيف بتركى يا ابن أمّ الطبائعا ! ؟

***

كذلك أنصفها الذين كتبوا عن حياة العرب فى الجزيرة ، فشادوا بذكر « المنجبات » من عقائل العرب ، مثل :

ــ فاطمة بنت الخرشب : أنجبت لزياد العبسى ، أبناءه الذين اشتهروا بلقب « الكَمَلة » وهم : ربيع الكامل ، وقيس الحفاظ ، وعمارة الوهاب ، وأنس الفوارس

قيل انها سئلت يوما : « أى بنيك أفضل ؟ .. »

فبان عليها التردد ، وهى تقول فى حيرة : الربيع ، لا .. بل قيس ..

ثم هتفت : « ثكلتهم ان كنت أدرى أيهم أفضل ! هم كالحلقة المفرغة لا يُدرى أين طرفاها »

ــ وأم البنين ، بنت عامر بن عمرو ، زوج مالك بن جعفر ، أنجبت له : مُلاعب الأسنة ، وطفيل (١) الخيل ، وربيع المقترين ، ونزّال الضيف ، ومعوذ الحكماء !

ــ وخبيئة بنت رياح الغنوية ، أنجبت ثلاثة كعشرة : خالدا ، ومالكا ، وربيعة

ــ وعاتكة بنت هلال السلمية ، أنجبت لعبد مناف بن قصى : هاشما ، وعبد شمس ، والمطلب

ــ وأم الفضل بنت الحارث الهلالية ، زوج العباس بن عبد المطلب ، وفيها يقول الشاعر :

(١) هو القائل :
اذا نزل السحاب بأرض قوم رعيناه وان كانوا غضابا
الروض الأنف : ١٧٥/٢

ما ولدت نجيبة من فحل
كسبعة من بطن أم الفضل (١)

ـ وريحانة بنت معديكرب الزبيدى ، أخت عمرو بن معديكرب . كان « الصمة بن عبد الله الجشمى » سباها ثم تزوجها فولدت له دريدا ، وعبد الله ، وعبد يغوث ، وقيسا ، وخالدا

واياها عنى أخوها « عمرو » بقوله :

أمن « ريحانة » الداعى السميع يؤرقنى وأصحابى هجوع
اذا لم تستطع شيئا فدعه وجاوزه الى ما تستطيع

***

وليس ببعيد عن مظاهر مجد الأمومة ، وما كان من اعزازهم لها ، أن عددا غير قليل من قبائل العرب وبطونها ، نزع الى أمّه وآثر الانتساب اليها ، كبنى « الخندف » ــ وهى ليلى بنت عمران القضاعية ، زوج الياس ابن مضر ــ وعنها انشعب كثير من بطون العرب ، كهذيل ، وكنانة ، وأسد

وأم « الخندف » ، وهى « ضرية بنت ربيعة بن نزار » التى ينسب اليها « حِمَى ضرية »

ومن القبائل التى انتسبت الى أمهاتها : بنو جديلة « بنت مدركة بن الياس » واليها تنتسب قبيلة عدوان

وكذلك بنو جندلة ، وبنو بجيلة ، وبنو العبدية ، ورقاش ، ومزينة ، وعاملة ، وعفراء ، وباهلة ، وسلول

والعبلات : رهط الثريا بنت عبد الله بن الحارث ، صاحبة عمر بن أبى ربيعة ، نسبوا الى أمهم عبلة بنت عبيد بن جاذب (٢)

ومن الملوك من نسبوا الى الأم ، كعمرو بن هند ، والمناذرة بنى « ماء السماء » وهى ماوية بنت عوف بن جشم

---

(١) الروض الانف ٧٩/٢

(٢) أنظر فى هذا كله ، كتاب « جمهرة أنساب العرب » لابن حزم

وكثيرا ما سمعنا الشعراء يمدحون كبار الرجال بأمهاتهم ، قال «حذيفة ابن غانم » أخو بنى عدى بن كعب بن لؤى ، يبكى «عبد المطلب بن هاشم» ويذكر فضل قصى « على قريش » :

ولا تنس ما أسدى ابن « لبنى » فانه
قد اسدى يدا محقوقة منك بالشكر
وأمك سر من خزاعة جوهر
اذا حصل الأنساب يوما ذوو الخبر
الى سبأ الأبطال تنمى وتنتمى
فأكرم بها منسوبة فى ذرا الزهر

وقال « بشر بن أبى خازم » يمدح « أوس بن حارثة بن لام » :

الى أوس بن حارثة بن لام
ليقضى حاجتى ، ولقد قضاها
فما وطىء الحصا مثل ابن « سعدى »
ولا لبس النعال ولا احتذاها

***

ولهذه الأبيات قصة بالغة الدلالة على اعتراف القوم بما للأم من أثر فى صنع أبنائها وتوجيههم . حدثوا أن قوما أغروا « بشر بن أبى خازم » بهجاء « أوس » ، فأخذ يتلقفه بلسانه حتى ضاق به فبعث من يشتريه من مولاه بالغا ما بلغ ثمنه ، فلما جىء به خيّره بين قطع لسانه وحبسه حتى يموت ، أو قطع يديه ورجليه وتخلية سبيله

ثم دخل « أوس » على أمّه « سعدى » فكرهت رأيه ، وأمرته أن يحسن عطاءه ففعل ، فملأ « بشر » عراض الآفاق بمدائحه فى ابن « سعدى » وأقسم لا يمدح أحدا غير « ابن سعدى » ماعاش (٢)

ولم ينسوا أن يذكروا للمرأة مشاركتها فى جليل الأحداث ، من ذلك

---

(١) السيرة ١٣٩/١

(٢) انظر القصة بالتفصيل فى كتاب الكامل للمبرد (بغية الآمل : ٥٤/٣) ــ وتاريخ ابن الاثير : ٢٢٩/١ ــ وديوان بشر ، ط دمشق ١٩٦٠

ما رواه « ابن هشام » فى « السيرة » عن دور المرأة فى حلف المطيَّبين الذى كان بين بنى عبد مناف ومن انضموا اليهم فى خلافهم مع بنى عبد الدار بعد وفاة « قصى بن كلاب » ، فلقد أخرجت نساء بنى عبد مناف جفنة مملوءة طيبا ، فوضعها بنو عبد مناف لأحلافهم فى المسجد عند الكعبة فغمس القوم أيديهم فيها ثم مسحوا بها الكعبة توكيدا على أنفسهم ألا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضا

وقيل ان التى أخرجت لهم الجفنة ، هى « أم حكيم البيضاء : بنت عبد المطلب » عمة رسول الله وتوأمة أبيه

***

وأكثرنا يعرف للعرب حرصهم المفرط على الأنساب وولعهم بذكرها من قديم ، الى حد أن صار النسب عندهم علما يعنى به الحفاظ وتؤلف فيه الكتب ، ويشتهر به نفر من الذين وعوا أنساب العرب ، كجبير بن مطعم بن عدى وقد قيل انه «من أنسب قريش لقريش وللعرب قاطبة» ومثل « أبى بكر الصديق » الذى « كان أنسب العرب »

نعرف هذا ، لكنا حين يُذكر النسب ، يتجه تفكيرنا ــ غالبا ــ الى الآباء والأجداد دون الأمهات والجدات ، مع أن نسابِّى العرب لم يغفلوا عن ذكرهن ، وتكفى المامة يسيرة عاجلة بأحد كتب الأنساب ، لكى ندرك مدى حرص النسابين على ذكر الأمهات

وهذه العنـــاية غير مستغربة من قوم كان لهم مثلُ ذاك الحرص على النسب ، والاعتزاز بالأصالة ، والمباهاة بالخئولة

ظل ذلك فيهم الى ما بعد الاسلام بقرون ، حتى لتسمع « جرير بن عطية » يمدح « هشام بن عبد الملك بن مروان » قائلا :

فما الأم التى ولدت قريشا ... بمقرفة النجار ولا عقيم
وما قرم بأنجب من أبيكم ... وما خال بأكرم من تميم

قال ابن هشام (١) : « يعنى بالأم ، برة بنت مر ، أخت تميم بن مر ، أم

(١) السيرة ٩٦/١ ط الحلبى

النضر ــ والنضر هو قريش فى قول ، ويقال بل فهر بن مالك هو قريش».

وما من قارىء يتتبع مساق (النسب الزكى) فى السيرة ، الا عَجِبَ لعنايتهم البالغة بذكر الأمهات مهما ترتفع الأصول وتبعد

وانظر كتاب « نسب قريش للمصعب الزبيرى » وكتاب « جمهرة أنساب العرب لابن حزم الأندلسى » (١) لترى الى أى حد عُنى النسابون بالأمهات

وما هكذا يكون الأمر مع ناس أهدروا المرأة فيهم وأنزلوها منزلة الهوان ، ولا هكذا يكون سلوك قوم ألفوا أن يئدوا بناتهم على نطاق واسع ، وأن يرث الابن الأكبر زوجة أبيه دون أن يكون لها من أمرها شيء

***

على انا لا نريد أن ننفى شيئا من هذا الذى قيل عما لحق بالمرأة العربية ــ فى بعض الحالات ــ من ظلم أو استبداد ، لأننا ان فعلنا نكن كهؤلاء الذين أنكروا ما ظفرت به العقائل الكريمات من عزة ، وما وصلن اليه من مكانة

ثم هذا « القرآن الكريم » يقسم بالموءودة اذا سئلت ، بأى ذنب قتلت (٢) . وهذه كتب التاريخ العربى حافلة بما كان من ذاك ، لكنا نعرف أن ذلك لم يكن عاما بين العرب ، ثم نكره أن ننظر الى المرأة العربية من جانب واحد ، بل لعلنا اذا قسنا ما بلغنا من أخبار تكريمهن وتقديرهن والاعتراف بمآثرهن ، الى ما روى عن مظاهر هوانهن والاستبداد بهن ، لرجحت الأولى رجحانا ظاهرا ، وبخاصة اذا قدرنا ظروف البيئة العربية فى تلك الجاهلية القديمة ، قبل أن تسمع الدنيا عن نهضة المرأة وحقوق النساء بقرون ودهور

---

(١) نشرتهما دار المعارف فى سلسلة ذخائر العرب

(٢) عالجنا هذا الموضوع بمزيد بيان وتفصيل فى كتابنا « بنات النبى » فمن شاء فليرجع اليه (ص ٣٠ : ٤٣) من الطبعة الثانية

أمهات الأنبياء

بقى هناك أروع ما يقال عن الأنوثة والأمومة ، فى كتاب « آمنة » أم النبى العربى ..

بقى أن نرجع الى الأديان السماوية الكبرى لنرى الأمهات فى حيوات الأنبياء الأربعة :

اسماعيل ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد ، عليهم جميعا أزكى الصـلاة والسلام

لقد يبدو من عجيب الاتفاق أنهم ـ عليهم السلام ـ قد عُهِد بهم فى طفولتهم الى الأمهات وحدهن دون مشاركة الآباء ، فلم تقم الأم بدورها الطبيعى فقط ، بل عَوَّضت الى جانبه فقد الأب أو غيابه ..

غير أنا نرى الامر طبيعيا ، لا غرابة فيه ولا مصادفة ولا اتفاق .. اذ الأمومة فى عاطفتها الجياشة وايثارها الرائع ، أقرب الى أن ترعى أصحاب الرسالات الدينية التى تقوم على الروحانية ..

وما كانت السماء لتجحد هذه الصلة ..

ولا كانت الأديان التى حملها أبناء صنعتهم أمهاتهم ، بالتى تؤخر مكان الام أو تضعها فى غير موضعها العتيد :

« سنّة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله »

أم اسماعيل

« ربنـــا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل افئدة من الناس تهوى اليهم ، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون »

(قرآن كريم)

هذه (التوراة) تروى لنا قصة « هاجر أم اسماعيل » فى تفصيـــل مسهب ، وهذا (القرآن) يشير اليها فى مواضع شتى على أسلوبه المختار فى القصص . ويالها من قصة الأمومة فى أروع مواقفها وأعنف مشاعرها ! لقد أراد الله أن يؤثر هذه الأم برعاية « اسماعيل » الوليد وانقاذه من الهلاك ، فتركه لها وحدها فى واد قفر غير ذى زرع ، كى تكون لهفتها على الصغير والألم الذى ذاقته حين رأته يكابد حرقة الظمأ ، ومسعاها المثير فى سبيل نجاته ، حديث التاريخ وعبرة الدهر ، وصورة تخلد فيها الأمومة وتتقدس آلامها الى حيث تغدو عبادة وصلاة !

ومَن « هاجر » ؟

أمة ضعيفة لا حول لها ولا طول ، جاءت بها « السيدة سارة : زوجة ابراهيم » الى فلسطين ، بعد رحلتها المشهورة الى مصر فى صحبة زوجها ، عندما خرج من بلاده مهاجرا بدينه كافرا بقومه وبما يعبدون من دون الله

وكانت السيدة « سارة » عاقرا ، وقد طال عليها الأمد وهى عاجزة عن أن تعطى زوجها ولدا ، ثم .. بدا لها أن تهب زوجها تلك الجارية المصرية ، لعله يسكن الى احدى الراحتين !

وحملت « هاجر » فهاج ذلك فى سيدتها أقسى ما فى حواء من غيرة ، وخيِّل اليها أن أَمَتها صارت تنظر اليها نظرة فيها مباهاة ورثاء مُذلٍّ ، فأقبلت على زوجها عاتبة شاكية تقول :

ــ أنا دفعت اليك جاريتى ، فلما حملتْ ترفعتْ علىَّ ! (١)

فرد عليها ملاطفا :

ــ هى جاريتك ، تصنعين بها ما تشائين ! (٢)

لكن « سارة » لم تشأ أن تصنع شيئا قبل أن تبذل محاولتها الأخيرة فى احتمال الموقف ، حتى اذا وضعت « هاجر » مولودها ، نفد صبر السيدة وغلِب احتمالها ، فأقسمت ألا يؤويها وجاريتها سقف

ثم ما زالت بزوجها حتى انطلق ذات يوم ميمما شطر الجنوب ، تتبعه « هاجر » وبين ذراعيها وليدها « اسماعيل »

وانتهى بهم المسير عند « مكة » وهى اذ ذاك مقفرة خلاء ، لا يكاد يلم بها سوى نفر من الرحَّل ، وقوم من العماليق كانوا يعيشـــون خارجها ويتنقلون من حين الى حين ، التماسا لماء أو انتجاعا لمرعى

وعند ربوة حمراء كانت قائمة هناك حيث أطلال البيت العتيق ، ترك ابراهيم « هاجر » وولدها ، وترك لها جراب تمر وسقاء فيه ماء ، وأمرها أن تتخذ لها عريشا ، ثم هـمَّ بالرجوع من حيث جاء .. فارتاعت «هاجر» من وحشة البرية ، وتضرعت الى « ابراهيم » ألا يدعها وولدهما فى ذاك القفر المرهوب ، لكنه أشاح بوجهه عنها لا يلتفت ولا يجيب ، كأنما كان يخشى أن تخونه عاطفته أمام الأم الوالهة الحيرى ، أو تثور أبوته رحمة بابنه الوحيد ، الذى نبذه وأمه بالعراء

وأعادت « هاجر » سؤالها : (٣)

ــ أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه انس ولا شىء

وهو منصرف عنهـــا منطلق فى ســبيله لا يلوى على شىء ، حتى اذا كاد يتوارى خلف منعرج الوادى ، سمع صوتها الضارع يسأل فى لهفة :

ــ آلله أمرك بهذا ؟

أجاب دون أن يلتفت :

---

(١) ، (٢) ، (٣) بنصه ، من التوراة

ــ أجل

فقالت « هاجر » فى استسلام خاشع :

ــ اذن فالله لا يضيعنا .. (١)

وأطرقت صامتة ، فلم تر « ابراهيم » وقد رفع وجهه الى السماء حين غيبته ثنية الوادى ، وابتهل الى الله فى توسل :

« ربّنا انى أسكنتُ من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرّم ، ربّنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفئدةً من الناس تهوى اليهم ، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ــ ربّنا انك تعلم ما نُخفى وما نُعلن ، وما يخفى على الله من شىء فى الأرض ولا فى السماء » (٢)

ثم استأنف مسيره عائدا الى زوجه « السيدة سارة »

وأقبلت « هاجر » على ولدها تستمد منه الأنس والعزاء ، وكادت تنسى به محنة الرق ومأساة الهجر ، وقد شغلت بالنظر الى وجهه الحلو الحبيب ، فلم تشعر أول الأمر بوحدتها الرهيبة فى البرية المقفرة ، ولم تدرك حق الادراك قسوة موقفها ذاك فى الوادى الأجرد ، بين الصخور الكالحة ، والجبال الغبراء ..

حتى نفدت مئونتها الضئيلة ، وبدأ الظمأ يناوش الصغير العزيز ، فهبت مذعورة تبحث له عن قطرة ماء ..

وحين أعياها أن تجد هذه القطرة ، بدا لها أن تصعد الى عل ، فنظرت أى الجبال أدنى من الأرض ، فاذا « الصفا » قريب منها ، فقامت عليه ثم استقبلت الوادى تنظر : هل ترى أحدا ؟ وتسمعت : هل تؤنس صوتا ؟ فلما لم تجد الا الوحشة والصمت ، أتت « المروة » مهرولة تسعى سعى المجهد ، وصعدت علّها ترى أثرا من حياة ، ولا أثر ..

وظلت هكذا تسعى مهرولة بين « الصفا » و « المروة » سبع مرات

---

(١) الحوار بنصه من التوراة

(٢) سورة ابراهيم ، آيتا ٣٧ ، ٣٨

حتى نال منها التعب والاعياء ، فتهاوت على الرمال الى جانب ولدها تنتظر المصير الفاجع مستسلمة ، شبه يائسة ..

لكنها لم تلبث فى مكانها طويلا ، فلقد كان لُهاث ولدها الظامىء يمزق قلبها ويفرى كبدها ، وكان مرآه والحياة تتسرب منه وتخبو رويدا رويدا ، أقسى من أن تحتمله أمومتها ، فجمعت كل ما بقى لها من قوة ، وزحفت بعيدا عن ولدها المحتضر ، ثم غطت وجهها بلفاعها وهى تقول :

ـ لا أنظر موت الولد ..

***

وأمسك الكون أنفاسه ، ولم يبق من صوت سوى لهاث المحتضر وأنين أمه الملتاعة ، يتردد صداهما فى البلقع القفر ، مختلطا بعواء وحوش الفلاة ، وسُعار السباع الجائعة المحوّمة على المكان .. كأنها ترقب الخفقة الأخيرة فى فريستها المنتظرة ..

ثم كانت النجاة ....

انبثق ماء « زمزم » فهرعت « هاجر » نحوها وهى تحس موجة طارئة من القوة والحيوية قد تدفقت فى كيانها ، وأقبلت ترتوى ، وتسقى ولدها..

ودبت الحياة فى الوادى الأجرد ..

قالوا : « ومرت رفقة من « جرهم » مقبلة من طريق « كداء » تريد الشام ، فنزلوا فى أسفل مكة فرأوا طيرا فقالوا : ان هذا الطير لحائم" على ماء ! لَعهدُنا بهذا الوادى وما فيه ماء ..

« وأرسلوا دليلهم ، فعاد يحدثهم عما رأى ، وتبعوه حتى أشرف بهم على المـاء ، فاذا هناك هاجر وولدها . فقالوا لها : ان شئت كنا معك فآنسناك ، والماء ماؤك ..

« فأذنت لهم فنزلوا معها ، وهم أول سكان « مكة »

وخلدت « هاجر : الأمة المنبـوذة » صـورة مؤثرة مثيرة للأمومة فى حنوها وآلامها وهمومها ..

وعاش ولدها اسماعيل ــ ذاك الذى رعته وحدها حين تركه أبوه فى البلقع القفر ــ ليتلقى مع أبيه رسالة السماء :

« .. وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل ، أن طهّرا بيتى للطائفين والعاكفين والركّع السجود ــ واذ قال ابراهيم : رَبِّ اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر ، قال ومن كفر فأُمتّعه قليلا ثم أضطرُّه الى عذاب النار وبئس المصير ــ واذ يرفعُ ابراهيمُ القواعدَ من البيت واسماعيلُ ، ربّنا تقبل منا انك أنت السميع العليم ــ ربّنا واجعلنا مُسلِمين لك ومن ذريتنا أمّةً مُسلِمة لك ، وأرِنا مناسِكنا ، وتُب علينا انك أنت التواب الرحيم ــ ربّنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتِك ويعلّمهُم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، انك أنت العزيز الحكيم » (١)

(١) سورة البقرة آيات ١٢٥ : ١٢٩

أم موسى

« .. وأوحينــا الى أم موسى ان ارضعيه ، فاذا خفت عليه فالقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى ، انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين »

(قرآن كريم)

لايذكر لنا « القرآن الكريم » شيئا عن والد « موسى » ، وانما يخص بالذكر أمَّه ، ويكل اليها أمر حمايته وليدا ورضيعا ، حين استبد فرعون ببنى اسرائيل فأذلهم واستعبدهم وراح يسومهم سوء العذاب ..

وتقول الراوية (١) : انه رأى فى منــامه رؤيا أفزعتــه « فدعا الكهنة والسحرة والمعبرين والمنجمين ، فسألهم تأويل رؤياه فقالوا : يولد فى بنى اسرائيل غلام يسلبك الملك ويغلبك على سلطانك ، ويخرجك وقومك من أرضك ، ويبدل دينك . وقد أظلّك زمانه الذى يولد فيه »

فجُنّ غضبه وقلقه .. وأمر بقتل كل غلام يولد فى بنى اسرائيل ، وجند لذلك القوابل من النساء فى أنحاء المملكة ..

ووُلد «موسى» حينذاك خفية ، بعد أن ذبح فرعون فى طلبه سبعين ألف ولد على ما يقولون (٢) — فارتجفت أمه رعبــا وجزعا ، وأشفقت عليها القابلة فوعدتها أن تكتم الأمر . ويضيف بعض الرواة أنها — أى القابلة — لم تكد تنظر الى الوليد حتى اهتز قلبها رحمة له وتعلقا به ، وأبى عليها أن تسلمه الى الذبح ..

غير أنها ما كادت تنصرف من عنــد أم « موسى » حتى أبصرتها عيون فرعون التى بثها فى كل مكان ، فاندفعوا يقتحمون الدار وكادوا يظفرون

---

(١) راجع (قصص الانبياء) للامام الثعلبى ، ص ١٧٣ و ١٧٤ ط السعيدية

(٢) العرائس للثعلبى : ١٧٥

بالوليد لولا أن لمحتهم أخته « مريم » فهمست جازعة :

ـــ أماه ، هذا الحرس بالباب !

وفى ذهول المفاجأة ، لفّت الأم ولدها فى خرقة وألقته فى جوف التنور، دون أن تشعر بما تفعل ، فلم تكد تودعه هناك حتى دخل الحراس ، فلم يجدوا سوى الأم بادية السكينة والاطمئنان ، والى جانبها فتاتها تعنى بشؤون الدار فى جد وهدوء ..

وسألها الحراس فى فظاظة :

ـــ ما أدخل عليك هذه القابلة ؟

أجابت من غير أن تزايلها سكينتها :

ـــ هى مصافية لى ، دخلت علىّ زائرة ..

فانصرفوا ، ودارت عينا الأم تبحثان عن ولدها ، فاذا صوته ينبعث من التنور ، فهرعت اليه وأخرجته لم يمسه أذى بفضل الله

***

وبدا جليا أن اخفاء الصغير غير مستطاع الا الى حين ، وأطرقت الأم مهمومة تفكر ، فأوحى الله اليها : « أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليمّ ، فليُلقِه اليمّ بالساحل يأخذه عدوٌ لى وعدوٌ له » (١)

واستجابت الأم لوحى السماء ، فاتخذت تابوتا وجعلت فيه قطنا ، ثم أرضعت وليدها وأرقدته فى التابوت وأحكمت عليه الغطاء ، وألقت به فى النيل ..

كيف كان شعورها اذ ذاك وهى تسلم فلذة كبدها بيدها الى النهر ؟

أغفل كثيرون ممن تعرضوا للقصة ، تصوير موقفها ذاك على ضفة النيل، وقد تعلقت عيناها بالتابوت الذى يضم الصغير الحبيب ، اذ تتقاذفه الأمواج وتمضى به بعيدا ..

على أن منهم من أدرك الموقف المؤثر ، حين غاب التابوت عن بصرها ،

---

(١) من آية ٣٩ سورة طه

وروّعها الفراغ من حولها .. فتنبهت فجأة الى أنها ألقت ولدها بيديها فى اليم ، وكأن اشتغالها بالفرار به من عذاب فرعون ، قد صرفها عن التفكير فى أى شيء عدا النجاة ، حتى أدركت بعد فوات الأوان ، أنها خلّصت وليدها من سكين الظالم ، لتلقى به الى أفواه الحيتان !

قال « الثعلبى » :

« فلما ألقته فى النيل وتوارى عنهـا ، أتاها الشيطان فوسوس اليها ، فقالت فى نفسها : ماذا صنعت بابنى ؟ لو ذبح لواريتـه وكفنته ، وكان أحب الىّ من أن ألقيه بيدى فى البحر وأدخله الى دواب البحر » (١)

وانى لأتمثلها الآن وقد لبثت فى مكانها على الشاطيء لا تكاد تقوى على مغادرته ، وقلبها يعدو فى أثر ذاك الذى مضى .. حتى افتقدتها ابنتها « مريم » فجاءت تلتمسها هنـاك ، وقادتها فى رفق عائدة بها الى الدار ، حيث مضت الأم المحزونة تطوف بأنحائها ، وتنادى الغائب العزيز ..

ثم أنزل الله سكينته عليها ، فأمسكت عبرتها وكتمت لوعتها ، وانطوت على نفسها صابرة مستسلمة ، داعية خاشعة

***

ومضت الأمواج « بموسى » حتى انتهت به الى روضـة عنـد قصر « فرعون » كانت مستقى لجواريه ، فمـا لمحن التابوت حتى التقطنـه وانطلقن به الى سيدتهن « آسية : امرأة فرعون » وفى حسابهن أن به كنزا من مال وجواهر ..

ثم فتح الصندوق ، فاذا الصغير الجميل يرفع الى « آسـية » وجها مشرقا بابتسامة وضيئة !

وانثنت تملأ عينيها منه وقد أحست قلبها يتفتح له ، كأنما هو قطعة منها ..

ولم يكن لها ولد ، فما أروعها هـدية تقدمها السماء الى أمومتهـا المحرومة !

---

(١) من قصص الانبياء : ١٧٤

فى هذا كانت تفكر ، حين أقبل الذباحون على جناحها ، يطلبون الصبى قالت آمرة :

ـ انصرفوا ، فان هذا لايزيد فى بنى اسرائيل ..

ثم لما رأت ترددهم ، خففت من صرامتها وقالت :

ـ دعوا أمره لى ، فأنا آتى فرعون وأستوهبه اياه ، فان فعل كنتم قد أحسنتم ، وان أمركم بذبحه فلن ألومكم ..

وجاءت « فرعون » فهتفت به :

« قرة عين لى ولك ، لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا » (١)

فكان جوابه :

ـ قرة عين لك ، أما أنا فلا حاجة لى فيه ..

ثم استدرك بعد لحظة :

ـ لا بل فليذبح ، فانى أخاف أن يكون هذا من بنى اسرائيل ، وأن يكون هو الذى هلاكنا وزوال ملكنا على يده ..

فلم تزل « آسـية » تكلمه وترجوه ، حتى وهبه لها ، وعادت به الى جناحها ، والدنيا لا تسعها من فرط غبطتها ..

***

وهنالك فى (حى المنبوذين) ، كانت « أم موسى » تضع يدها على قلبها الذى ما فتىء يخفق ملحا فى طلب النائى الغالى ..

قالت لأخته :

ـ « قصيه » وتتبعى أثره ، هل تسمعين له ذكرا ؟ أحى هو أم قد أهلكته دواب البحر ؟

فخرجت « مريم » تلتمس أثر أخيها ، وسارت بحذاء النهر حتى حملتها قدماها الى قريب من قصر فرعون ، لتسمع هناك أن ربة القصر تبنت غلاما

---

(١) من آية ٩ سورة القصص

رضيعا ، يأبى المراضع !

وحدثها قلبها أنه هو ، فظلت تحوم حول القصر فى حذر ولهفة وترقب ، حتى رأت جوارى « آسية » يخرجن فى التماس المراضع ، لعله يقبل ثدى احداهن ..

هنالك لاذت «مريم» بكل ما فى طاقتها من شجاعة كى تدارى مشاعرها وتكتم لهفتها ، وتقدمت الى القصر فى حــذر ، ثم قالت لبعض من هناك ، فى صوت حاولت ألا ينم عن شىء مما كان يخالجها :

ـ « هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم ، وهم له ناصحون ؟» (١)

فراب القوم ما سمعوا ، وأحاطوا بها يسألونها :

ـ ما نراك الا تخفين أمرا !

فأجابت فى ثبات :

ـ بل أردت أن أنصح لكم ..

قالوا :

ـ لعلك تعرفين أهله ، والا فما يدريك أنهم له ناصحون ؟..

فهزت رأسها قائلة :

ـ الأمر أبسط مما تظنون ! كل ما هناك أنى أعرف فيهم الرحمة وطيب القلب ، وما أشك فى أنهم يرحبون بحضانة الصــغير شفقة عليه ، وتقربا الى الملك ، والتماسا لبره !

وتبعوها الى حيث كانت « أم موسى » تجتر همــومهــا فى وحــدتها القاسية ، خالية الذهن من أسعد مفاجأة تخطر على قلب أم !

ولمحته ، فأمسكت صيحة فرح كادت تنطلق من أعماق قلبها المشــوق فتنم عليها ، وأقبلت على الرضيع متجلدة متماسكة ، فضمته الى صدرها فى رفق ، وألقمته ثديها ..

فما كان أشد عجب القوم الذين عرفوا اباء «موسى» للمراضع جميعا ،

---

(١) من آية ١٢ سورة القصص

اذ رأوه يلقف الثدى فى لهفة الظامىء يجد رِيًّا !

ورضع حتى ارتوى ، وعاد رسل « آسية » اليها يصحبون « موسى » وأمه ، ويقصون عليها ما رأوا من أمرهما ..

قالت فى غبطة :

ــ هلا مكثت عندى ياظئرُ لترضعى ابنى هذا الحبيب ؟ !

فأجابت الأم :

ــ بل ان شئت ياسيدتى صحبته معى الى بيتى أرضعه وأرعاه ، فانى أخشى ان أنا هجرت بيتى وولدى ، ضاعوا .. ولست بتاركتهم أبدا ..

وقد يبدو عجيبا من « أم موسى » أن تقف هذا الموقف من « امرأة فرعون » فتأبى أن تقيم فى القصر ظئرا لولدها .. لكن لا عجب ، فلقد أدركت الأم أنها سيدة الموقف ما دام ولدها قد أبى أن يرضع الا من ثدييها ، وانها لتعرف تعلق « آسية » بالصغير ، فلماذا لا تصر على أن تعود به الى دارها كى تروى به أشواق أمومتها فى اطمئنان ، بعيدا عن جو القصر وعيونه وأرصاده ؟

لماذا لا تنجو به من رقباء قد يريبهم حنوها الغامر على الصغير ؟

لو أنها أقامت بالقصر ، فهى بين أمرين أحلاهما مر :

اما أن تكبت عاطفتها الظمأى وتخنق مشاعرها الطبيعية ، كى لايستريب القوم فى أمرها ، وذلك ما لاطاقة لأمومتها به بعد الذى كان من عذاب الحرمان ..

واما أن تترك نفسها على سجيتها ، فتدفع ولدها بيدها الى المذبحة !

ثم انها قد رأت من رحمة ربها بها وبولدها ، ما يغريها بأن تختار لنفسها وله المكان المطمئن فى دارها ، وفى ذلك يقول « الثعلبى » :

« وتذكرت أم موسى ما كان الله وعدها ، فتعاسرت على امرأة فرعون ، وأيقنت أن الله سبحانه وتعالى منجز وعده »

ولم تجد « آسية » مفرا من اجابة الظئر الى طلبها حرصا على حياة

الوليد ، فأذنت لها فرجعت به الى بيتها ..

فذلك قوله تعالى : « ان فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم ، يذبّح أبناءهم ويستحيى نساءهم ، انه كان من المفسدين....

« وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه ، فاذا خفت عليه فألقيه فى اليمّ ولا تخافى ولا تحزنى ، انا رادّوه اليك وجاعلوه من المرسلين ــ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوّا وحزنا ، ان فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين ــ وقالت امرأة فرعون : قرة عين لى ولك ، لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لايشعرون ــ وأصبح فؤاد أم موسى فارغا ، ان كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين ــ وقالت لأخته : قصّيه ، فبصرت به عن جنب وهم لايشعرون ــ وحرّمنا عليه المراضع من قبل ، فقالت : هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ؟ ــ فرددناه الى أمّه كى تقرّ عينها ولا تحزن ، ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لايعلمون ــ ولما بلغ أشدّه واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين » (١)

وقوله تعالى فى سورة طه : (٢)

« قال قد أوتيت سؤلك ياموسى ــ ولقد مننّا عليك مرة أخرى ــ اذ أوحينا الى أمّك ما يوحى ــ أن اقذفيه فى التّابوت فاقذفيه فى اليمّ فليلقه اليمّ بالساحل يأخذه عدوّ لى وعدوّ له ، وألقيت عليك محبّة منى ولتصنع على عينى ــ اذ تمشى أختك فتقول : هل أدلكم على من يكفله ، فرجعناك الى أمّك كى تقرّ عينها ولا تحزن »

هكذا نزل الوحى على « أم موسى » وعهدت اليها السماء بالمهمة الجليلة : مهمة انقاذ الوليد المدخر لاحدى الرسالات الكبرى ، من المذبحة التى لم ينج منها غلام لبنى اسرائيل فى ذلك العهد !

---

(١) سورة القصص ، آيات ٤ : ١٤

(٢) آيات ٣٧ : ٤٠

أم المسيح

« ... اذ قالت الملائكة يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين »

(قرآن كريم)

وعيسى عليه السلام ؟ ..

ما يذكر « القرآن » له أبا ، وانما هو « عيسى بن مريم » كما دعاه كتاب الاسلام ..

ومن حق الأمهات أن يفخرن بنسبة نبى المسيحية الى أمّه ، هذه الأم التى طهرها الله واصطفاها على نساء العالمين ..

وقصة أمومة « مريم » كما روتها كتب السماء بالغة التأثير والعنف ، فلقد تعرضت ــ عليها السلام ــ لأقسى ما تتعرض له أنثى : نشأت فى بيت دين وتقى ، لأب عالم شيخ من كبار بنى اسرائيل ، فلما حملت بها أمها نذرت لله أن تهب ما فى بطنها لخدمة الهيكل : « اذ قالت امرأة عمران : رب انّى نذرت لك ما فى بطنى محرّرا فتقبّل منى انك أنت السميع العليم ــ فلما وضعتها ، قالت رب انى وضعتها أنثى ، والله أعلم بما وضعت ، وليس الذكر كالأنثى ، وانى سمّيتها مريم ، وانى أعيذها بك وذرّيتها من الشيطان الرجيم ــ فتقبّلها ربّها بقبول حسن ، وأنبتها نباتا حسنا وكفّلها زكريا » (١)

ذلك أن أباها « عمران » مات وهى صغيرة ، فاختلف القوم فيمن يكفلها من آلها ، وألقوا على ذلك قرعة فكفلها « زكريا » زوج خالتها ..

---

(١) سورة آل عمران ــ آيات ٣٥ : ٣٧

« ذلك من أنبـاء الغيب نوحيه اليكَ ، وما كنتَ لديهم اذ يُلقون أقلامهم : أيُّهم يكفُل مريم ، وما كنتَ لديهم اذ يختصمون » (١)

وأمضت مريم صباها فى المحراب عابدة خادمة ، وفاء بنذر أمها ، حتى اذا اختارها الله من دون النساء جميعا ليودعها سره الأكبر ، بعث اليها فى خلوتها من بشّرها « بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم ، وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين » (٢)

فما كادت تسمع البشرى حتى أخذ الروع منها أعنف مأخذ ، ثم رفعت وجهها الى السماء وقالت :

« رب أنَّى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشرٌ ولم أكُ بغيا ــ قال : كذلك قال ربُّك هو علىَّ هينٌ ، ولنجعله آيةً للناس ورحمة منا ، وكان أمرا مقضيا » (٣)

واستسلمت لأمر الله المقضى وقدره المحتوم ، حتى أحست الجنين يتقلب فى أحشائها ، ويا له من احساس رهيب تعانيه عذراء طاهرة الذيل نقيـة السـمعة ! هنالك أشفقت من الفضيحة والعـار ، فانتبذت بحملها مكانا قصيا ، وأقامت فى واد للرعاة هجره رعاته بمواشيهم التماسا للكلأ ، فلما جاءها المخاض اتكأت الى جذع نخلة هناك ، ووضعت وليدها فى مذود للماشية ، وهى تقول :

« يا ليتنى متُّ قبل هذا وكنت نسيا منسيا »

ثم كان ما لابد أن يكون ...

أتت به قومها تحمله ، « قالوا : يا مريم لقد جئت شيئا فريًّا ، يا أخت هارون ما كان أبوكِ امرأ سَوْء وما كانت أمُّك بغيا » (٤)

ولم يشفع لها ما عرف القوم من عفتها وطهرها ، ولا أنقذها من لعنتهم

(١) سورة آل عمران آية ٤٤
(٢) سورة آل عمران آية ٤٥
(٣) سورة مريم : ٢٠ ، ٢١
(٤) سورة مريم : آية ٢٣

ما بدا من ولدها الصغير من آيات بيّنات ، بل رموها بالاثم وقالوا عليها « بهتانا عظيما » ، فتلقت اللعنة صابرة ، وكابدت المحنة متجلدة لقضاء الله فيها وقدره ، راضية بما هو أقسى من الموت فى سبيل ولدها الموعود بالمجد الأعظم ..

ويصف « الانجيل » ما عانت « مريم » من ذلك وصفا مؤثرا ، ثم يحدثنا عن فرارها بابنها الى مصر لكى تنجو به من الكيد والأذى ، حيث أقامت هناك اثنى عشر عاما ، ترعاه وتكدح لتهيىء له أسباب العيش ووسائل التعلم ..

ولم يجحد الكتاب المسلمون ذلك الكفاح الصابر، بل كتب «الثعلبى» : « فأقامت مريم بمصر اثنتى عشرة سنة ، تغزل الكتان ، وتلتقط السنبل فى أثر الحصادين ، وكانت تفعل ذلك والمهد فى منكبها ، والوعاء الذى فيه السنبل فى منكبها الآخر ؟ (١)

كما يتحدثون عن عنايتها بتعليمه ، ويصفون كيف أخذته صغيرا « وجاءت به الى الكتاب وأقعدته بين يدى المؤدب (٢) حتى أذن الرب لها ، فعادت به الى « أورشليم » ليسجد هناك حسب شريعة الرب المكتوبة فى كتاب موسى »

وسكنا فى قرية « الناصرة » حيث عاشت له الى أن بلغ مبلغ الرجال ، وكانت هى التى لاذ بها عندما تجلّت له الرؤيا ، وكاشفها بهمومه الكبار ، وتزود منها بالتأييد والتشجيع ..

وقد سجل لها (انجيل برنابا) ذلك الموقف الخالد ، فذكر فى الفصل العاشر أنه لما بلغ « يسوع » ثلاثين سنة من العمر ، صعد الى جبل الزيتون مع أمه ليجنى زيتونا ، وهنالك تجلت له الرؤيا وعلم أنه نبى مرسل الى بنى اسرائيل فكاشف مريم أمه بكل ذلك قائلا لها : انه يترتب عليه احتمال اضطهاد عظيم لمجد الله ، وانه ـ أى عيسى ـ لا يقدر فيما

---

(١) ، (٢) العرائس للثعلبى : ٢ ، ٤

بعد أن يقيم معها ويؤدى ماعليه من دين لها بخدمتها ..

« فلما سمعت مريم هذا أجابت : يابنى ، انى نبئت بكل ذلك قبل أن تولد ، فليتمجد اسم الله القدوس . ومن ذلك اليوم انصرف يسوع عن أمه ليمارس وظيفته الدينية » (١) بعد أن صحبته مدى ثلاثين عاما ، هيأته خلالها للدور العظيم الذى ينتظره ..

انصرف عنها ، ولكنهما خلدا معا على الأيام ، آية من آيات الله ..

« وجعلنا ابن مريم وأمَّه آية »

« وجعلناها وابنها آية للعالمين »

***

وتأتى « آمنة بنت وهب » فى ختام هذا الموكب الرائع لأمهات الأنبياء ، لتكون أم الرسول اليتيم : خاتم الرسل ، والمبعوث بآخر رسالات السماء !



(١) انجيل برنابا : الفصل العاشر

الكتاب الثانى

بيئة... ووراثة

١ ـ البيت العتيق
٢ ـ بنو زهرة

البيت العتيق

« ... واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت ألا تشرك بى شيئا ، وطهر بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود ـ وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ـ ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات.. »

(قرآن كريم)

لبيك اللهم لبيك !...

هو الهتاف الخالد ، رددت صداه الآفاقُ المكية منذ ما لا يحصى من السنين ، فاذا الملايين تنثال الى « البيت العتيق » من كل فج ، ملبية أذان « الخليل » فى الناس بالحج ، ومستجيبة من بعده لدعاء النبى العربى اليتيم ، الذى وضعته « آمنة بنت وهب » فى دار « عبد الله بن عبد المطلب ابن هاشم » ، منذ قرابة ألف وأربعمائة عام !

يا أُذُنَ الزمان الواعية ..

ويا عين الدهر الباصرة ..

أى ألسِنة للعابدين سمعتِ ؟

وأى وجوه هنالك رأيتِ ؟

وأى ألوان من البشر شهدتِ ؟

وأى ألوية خفقت بين يديك ؟

وأى هامات انثنت لديكِ ، فى هذه البقعة من الأرض ، وسط الوادى الأجرد الذى تحف به الصخور السود والجبال الشُّم ، منذ جَعِل

« البيتُ » هنالك مثـابةً للنـاس وأمنا ، وحَرما وملاذا ، يطمئن فيه الخائف ، ويأمن لديه المروَّع ، ويُحقَن عنده الدمُ المهدَر ، وتَحمى فى حِماه حياة"كانت اذ ذاك مستباحة فى شِرعة الصحراء وبضراوة البيداء ؟ !

« ان أول بيت وضع للناس ، للّذى ببكة مباركا وهدى للعالمين » (١)

***

يا ذاكرة الزمان الحافظة !

عرفتِ الدنيا بيوتا وبيوتا ..

ورأيت رسوما وطقوسا ، فى شرق الأرض ومغربها ، وقديمها والحديث..

وشهدت حجابا وزوارا ، وطائفين وعبّادا ..

وهذا البيت العتيق بينها كان ــ ولا يزال ــ علَما شامخا وصرحا ممردا ، ترامت أضواؤه وأصداؤه الى أبعد مما ترامى اليه تأثير بيت من تلك البيوتات ، ومزار من هاتيك المزارات !

ومن يدرى يا دهر ، كم من آلاف السنين قد أسقطت أصابعك الباطشة أوراقها من تقويم الزمن ، منذ كانت تلك البقعة الضيقة المحصورة من أرض الحجاز ، مأوى يسير الشأن ، ومحطا هين الأمر ، يريح فيه المسافرون من طلاب الرزق قوافلهم ، فى طريقهم بين الشمال والجنوب ذهابا وجيئة ، وربما التمسوا قريبا منه بعض ماء العيون ، قبل أن يستأنفوا مسيرهم الشاق فى قلب الفلاة ؟ !

***

من يدرى يا ذاكرة التاريخ ، كم من أجيال البشر مرّت بكِ ، قبل أن يجد أولئك الضاربون فى الصحراء عبر الوادى القفر المرهوب والفيافى المهجورة الموحشة ، موئلا فى جوار «مكة» يتريثون عنده التماسا للحماية والعون ، وتزودا بشىء من الطمأنينة يعينهم على مسعاهم المضنى ومسراهم المخوف ، عبر الفيافى والقفار ؟

منذ كم من الدهور والأحقاب ، كانت تلك البقعة من الصحراء المترامية

(١) سورة آل عمران : ٩٦

الأطراف ، مباءة عبادة ، يرى الناس بينها وبين السماء صلة مباشرة ، فهم ينثالون اليها حجاجا ضارعين ، ويلوذون بها داعين مبتهلين ، قد هانت لديهم الأرض الا موضعا ، وعزّ الأمان الا فى مكان ؟ !

كيف نَمَتْ «مكة» معك يازمن ، من محطة صغيرة للقوافل ، الى مركز تجارى هام ، تتلاقى فيه القوافل من شمال وجنوب ، وتتواصل حضارتا الشرق والغرب ، حين كانت الابل وحدها عدّة السير وأداة الاتصال ؟

وكيف شاركت هذه البقعة فى ذلك التواصل ، عندما ضجت الدنيا حولها بالحركة وزخرت بالحياة ، فجاءت من الشرق بما فى فارس ، والهند ، والصين ، ومن الجنوب بما عند اليمن والأحباش ، ودفعت ذلك كله الى الغرب عن طريق البحرين : الأحمر والأبيض ؟ !

***

ليس غيرك يا زمن ، من يستطيع أن يصف لنا بالتفصيل ، الاعتبارات الاجتماعية والاقتصادية التى جعلت المعنى الدينى لهذه البقعة من قلب الفلاة ، يتضخم ويتركز ويتجسم ، حتى صار مثابة العرب ومطاف أحلامهم وتطلعهم الى الاستقرار الاجتماعى والعدالة المرجوة فى حياة آمن وأسعد وأهنأ من تلك التى فرضتها عليهم البادية الضارية ..

ان تاريخ العرب المكتوب ، يقدم لنا من ذلك كله حديثا عجبا يملأ مجلدات وأسفارا ، أنزلها القوم منذ كانت ، منزلة عليا من الثقة فيها والاطمئنان اليها ، ومهما يكن رأى التحقيق العلمى فيها ، فنحن لا نزال نتخذ من مثل تلك الكتب والأسفار ، مراجعنا ومصادرنا فى معرفة ماضى الجزيرة قبل الاسلام ، اذ لا نملك — الى اليوم — مصادر تاريخية عن ذاك العهد الموغل فى القدم ، الا ما تركته لنا الرواية النقلية ، وعليها معتمدنا فى معرفة الملامح العامة للتطورات التى يمكن أن تؤخذ من القضايا الاجتماعية الكبرى ..

أما التفاصيل الدقيقة فسوف تظل وديعة الدهر ، الى أن تصير هذه المنطقة موضع دراسة جيولوجية ، تمدنا بآثار عملية نقيم عليها الدرس

التاريخى

منذ متى بدأ التاريخ الدينى لمكة ؟..

يمضى به بعض كتاب السيرة ومؤرخى « مكة » الى عهد « شيث بن آدم » ، على أن تلك المرحلة الأولى من تاريخها البعيد غابت عنا ، فلا نكاد نعرف الا أنها كانت محطة متواضعة للقوافل ، وسوقا متوسطة للتبادل التجارى بين الشمال والجنوب من غرب الجزيرة ، كما نقرأ أنها كانت فى ذلك العهد السحيق موئلا للعبادة ، وهو أمر لم يكن منه بد ، تأمينا للراحلين والتجار ..

ثم تطورت العبادة فى ظروف مجهولة الى وثنية أنكرها « ابراهيم » فبدأت مرحلة جديدة فى تاريخ مكة ، أجلى وأوضح ، وأوفى أخبارا ..

وقد تحدثت الكتب السماوية عن رسالة « ابراهيم » فى تفصيل وبيان ، فقصت علينا التوراة قصة مجىء ابراهيم الى « مكة » وتركه ابنه « اسماعيل » وأمه « هاجر » هناك ، حيث أوشكا على الهلاك ظمأً لولا أن انبثق ماء زمزم فأمسك عليهما الحياة ، وجذب القوافل فى أعقاب الرعاة ..

ووصف لنا القرآن الكريم موقف « ابراهيم » فى تلك البرية المقفرة ، يدعو الله أن يجعل أفئدة من الناس تهوى الى ذريته التى أسكنها بواد غير ذى زرع عند البيت المحرم ، كما حدثنا عن الرسالة الدينية الجديدة التى عهدت بها السماء الى ابراهيم وولده اسماعيل

كما يذكر لنا كتابنا الكريم ، مبلغ ما صل اليه المركز الدينى والاقتصادى لمكة :

« أوَ لم نـمكّن لهم حرما آمنا يجبى اليه ثمرات كل شىء ، رزقا من لدنا ؟ (١)

***

من ذلك العهد السحيق ، يرتفع الدعاء الخالد :

---

(١) سورة القصص : ٥٧

« لبيك اللهم لبيك ! »

فتتجاوب به أودية مكة وبطاحها ، وتخشع له الجبال الصخرية السود التى تحيط بها ، وتعنو له هامات البدو الصلاب : أبنـاء البادية وأمراء الصحراء ..

ومن ثم يمضى مؤرخونا الثقـات ورواتنـا الأول ، فيملأون المجلدات والأسفار بالحديث عن حرمة ذلك « البيت العتيق » كيف عظمت وجلّت ، وعن « مكة » فى عهدها الجديد كيف تسامت الى المنزلة الرفيعة التى بقيت لها على مر الحقب وتتابع الأجيال ..

حدثوا أن « جرهما » ــ وهم خئـولة ولد اسـماعيل ــ تولوا أمر البيت وملأوا فجاج مكة ، حتى ضاقت على أصحابها الأولين من « بنى اسماعيل » فتركوها دون أن ينازعوا « جرهما » فى ولايتهم لقرابتهم ، واعظاما لحرمة « مكة » أن يكون بها بغى أو قتال ، فلما خلا الجو لجرهم ، بغوا وظلموا وأكلوا مال الكعبة الذى يهدى لها . ويقول ابن اسحاق : « وكانت مكة لا تقر فيها ظلما ولا بغيا ، ولا يبغى فيها أحد على أحد الا أخرجته ، ولا يريدها ملك يستحل حرمتهـا الا هلك مكانه ، فيقال انها ما سُميت ببكة الا لأنها كانت تبك ــ تكسر ــ أعنـاق الجبابرة اذا أحدثوا فيها شيئا » (١)

وهكذا أخرج جبـابرة « جرهم » من مكة أذلة صـاغرين ، يرثيهم شاعرهم فيقول : (٢)

وقـائلـة والـدمع سـكبٌ مبـادر
وقـد شرقت بالدمع منهـا المحاجر :
كأن لم يكن بين «الحجون» الى « الصفا »
أنيس ، ولم يسمر « بمكة » سامر

(١) السيرة لابن هشام ج أول ، وانظر نهاية الارب للنويرى : ٢٣/١٦
(٢) السيرة ١/١٢٠ . ونهاية الارب : ٢٤/١٦

فقلت لها والقلب منى كأنما
يلجلجه بين الجناحين طائر :
بلى نحن كنا أهلها فأزالنا
صروف الليالى والجدودُ العواثر
وكنا ولاة « البيت » من بعد « نابت »
نطوف بذاك « البيت » والخيرُ ظاهر
فأخرجنا منها المليك بقدرة
كذلك — يا للناس ! — تجرى المقادر
فسحَّت دموع العين تبكى لبلدة
بها حرمٌ أمْنٌ ، وفيها المشاعر

ورووا أن « تبّعا الحميرى » مرَّ بقرب « مكة » فى طريقه الى اليمن ، فأتاه نفرٌ من هذيل بن مدركة بن الياس بن مضر ، فقالوا له :

— أيها الملك ، ألا ندلك على بيت مال داثر أغفلته الملوك قبلك ، فيه اللؤلؤ ، والزبرجد ، والياقوت ، والذهب ، والفضة ؟..

قال :

— بلى !..

قالوا :

— بيت بمكة يعبده أهله ، ويصلون عنده ..

وكان الهذليون انما أرادوا هلاك « تبّع » بذلك ، لما عرفوا من هلاك من أراد « البيت » من الملوك بسوء . ويقول « السهيلى » (١) : « وروى نقلة الأخبار أن « تبعا » لما عمد الى البيت يريد اخرابه ، رُمى بداء تمخض منه رأسه قيحا وصديدا .. وأنتن حتى لا يستطيع أحد أن يدنو منه قيد الرمح . وقيل : بل أرسلت عليه ريح كنعت منه — أى أيبست — يديه ورجليه ، وأصابتهم ظلمة شديدة .. فدعا بالحزاة والأطباء فسألهم عن

(١) الروض الانف . ٢٧/١ ط الجمالية

دائه ، فهالهم ما رأوا منه ولم يجد عندهم فرجا » حتى جاءه حبران من اليهود ، فقالا : لعلك هممت بشيء فى أمر هذا البيت ؟

فقال : نعم .. أردت هدمه .. وذكر لهما ما قال الهذليون ..

فصاح الحبران :

« ما أراد القوم الا هلاكك وهلاك جندك . ما نعلم بيتا لله اتخذه فى الأرض لنفسه غيره ، ولئن فعلت ما دعوك اليه لتَهلكن وليَهلكن من معك جميعا »

ثم نصحا له اذا هو أقدم على « البيت » أن يصنع عنده ما يصنع أهله : يطوف به ، ويعظمه ويكرمه ، ويحلق رأسه عنده ، ويذلّ له حتى يخرج ..

قالوا : فعرف نصحهما وصدّق حديثهما ، فقرب النفر من هذيل فقطع أيديهم وأرجلهم .. ثم مضى فطاف بالبيت ونحر عنده وحلق رأسه ، وأقام بمكة ـ فيما يذكرون ـ ستة أيام ، ينحر بها للناس ، ويسقيهم العسل ، ثم كسا البيت أحسن الكساء ، وجعل له بابا ومفتاحا ..

فيقال انه برىء من دائه وصح من وجعه ، ويعلق « السهيلى » على ذلك قائلا :

وأخلق بهذا الخبر أن يكون صحيحا ، فان الله سبحانه وتعالى يقول : « ومَن يُرِد فيه بالحاد بظُلم نُذِقه من عذاب أليم » (١)

ثم يروى « لتبع » شعرا ، يقول فيه :

وكسونا البيت الذى حرّم اللـ
ـهُ ملاءً منضدا وبرودا
ونحرنا بالشِّعب ستةَ ألف
فترى الناس نحوهن ورودا
ثم سرنا عنه نؤم سهيلا

(١) من آية ٢٥ سورة الحج

فرفعنـــــا لواءنا معقـــــودا (١)

وسوف نسمع قصـــة صاحب الفيـــل الذى رده الله عن بيته مريضا فى العام الذى وضعت فيه « آمنة » وحيدها مدحورا ..

***

وتبلغ حرمة مكة عند القوم ، مبلغا يصـــوره لنا ما رووه عن السيدة « عائشة » أنها قالت : ما زلنا نسمع أن « اسافا ونائلة » ـــ وهما من أصنام العرب فى الجاهليـــة ـــ كانا رجلا وامرأة من جرهم ، أحـــدثا فى الكعبة ، فمسخهما الله تعالى حجرين !

وقـــد ذكر ابن اسحق فى « السيرة » وابن الكلبى فى « الأصنـــام » وياقوت فى « معجمه » نسب هـــذين المخلوقين اللذين مســـخا حجرين ، لاعتدائهما على حرمة الكعبة ..

كما يصور تلك الحرمة ، ما زعموه ـــ فيما نقل ابن هشام فى السيرة ـــ من ان « أول ما كانت عبادة الحجارة فى بنى اسماعيل ، أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم ـــ حين ضاقت عليهم والتمسوا الفسح فى البلاد ـــ الا حمل معه حجارة من حجارة البيت تعظيمـــا للحرم ـــ فحيثما نزلوا وضعوه فطافوا به كطوافهم بالكعبة .. »

وكانت خدمة الكعبة نذرا غاليا تنذر له الأمهات والآباء فلذات أكبادهم من قديم الزمان ، من ذلك ما رووه أن امرأة من « جرهم » كانت لا تلد ، فنذرت لله ان هى ولدت رجلا أن تصدق به على الكعبة عبدا لها يخدمها ويقوم عليها ، فولدت « الغوث بن مر بن أد بن طابخة » فكان يقوم على الكعبة فى الدهر الأول مع أخواله من جرهم :

انى جعلت ربِّ من بنيَّه
ربيطـــةً بمكة العليَّـــه
فباركنْ لى بها أليَّه

(١) القصة مرويه بمزيد تفصيل فى الجزء الاول من السيرة النبوية لابن هشام ، والجزء الثانى من تاريخ ابن الاثير

واجعله من صالح البريّه

بهذا ومثله حدث النقلة وأكد الرواة ، وانه لشاهد على مدى ما وصلت اليه حرمة « البيت العتيق » فيهم ، ومكانة « مكة » عندهم ، تلك المكانة التى تنافس من أجلها المتنافسون وتقاتل المتقاتلون :

حاربت « خزاعة » جرهماً حتى أخرجتهم من مكة ، وظلت ولاية البيت فى « خزاعة » يتوارثها بنوها كابرا عن كابر ، حتى انتزعها منهم « قصى ابن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن النضر » الذى هو قريش على أرجح الروايات

وكان « قصى » يدعى زيدا حتى مات أبوه « كلاب » وتركه فطيما ، فخرجت به أمه « فاطمة بنت سعد » الأزدية حين تزوجها « ربيعة بن حرام » واحتملها الى بلاده ، وبقى « زهرة » أخو « قصى » فى مكة ، اذ كان قد بلغ مبلغ الرجال ..

وشب « قصى » غريبا وهو لا يعرف الا أنه ابن « ربيعة » زوج أمه ، حتى تسابّ هو ورجل من قضاعة ، فعيَّره قائلا :

ــ لستَ منا ، وانما أنت فينا مُلْصَق ..

فدخل على أمه وقد وجم لذلك ، فقالت له :

ــ يابنى ، صدَقَ .. انك لست منهم ، ولكن رهطك خير من رهطه ، وآباءك أشرف من آبائه ، وأنت قرشى ، وأخوك زهرة ، وبنو عمك بمكة ، وهم جيران ببيب الله الحرام ..

وعاد الى مكة رجلا ، فانتشر ولده وكثر ماله وعظم شرفه واذ ذاك رأى أنه « أولى بالكعبة وبأمر مكة ، من خزاعة وبنى بكر ، لأنه قرشى ، وقريش سليل اسماعيل وصريح ولده »

وشبّت الحرب شعواء بين قريش ومن حالفها ، وبين خزاعة وبنى بكر ، ثم تداعوا الى الصلح والتحكيم ، وحكّموا « يعمر بن عوف » البكرى فقضى بأن « قصيا أولى بالكعبة وأمر مكة ، من خزاعة »

ويقول الذين كتبوا تاريخ العرب ، ان مكة قد بدأت بقصىٍّ عهدا تضاءلت الى جانب مجده عهود خزاعة وجرهم ، وجدَّت فيها وظائف دينية أضيفت الى ما كان لها من قبل ، فكانت الى قصىٍّ « الحجابة ، والسقاية ، والرفادة ، والندوة ، واللواء » وبها حاز شرفَ مكة كله ، وأبقاه فى ولده من بعده ، ما يعرف المؤرخون أن أحدا نازعهم فيه قط ..

وكان أمر « قصى » فى قومه ، مدى حياته وبعد موته ، كالدين المتبع لا يُعمل بغيره ، واتخذ لنفسه دار الندوة ، وجعل بابها الى مسجد الكعبة ، ففيها كانت قريش تقضى أمورها !

فلما أدركه الكبر ورقَّ عظمه ، عز عليه ألا يدركَ ولدُه البكر « عبد الدار » ما بلغه أخوه « عبد مناف » فى زمان أبيه من شرف ، فقال الشيخ لعبد الدار :

« أما والله يابنى لألحقنك بالقوم وان كانوا قد شرفوا عليك » ثم جعل اليه كل ما كان بيده من أمر قومه ..

قالوا : وهلك قصى ، ولبثت قريش على ما أراد لها زمنا ، حتى قام بنو عبد مناف بن قصى : عبد شمس ، وهاشم ، والمطلب ، ونوفل ، فأجمعوا على أن يأخذوا ما بأيدى بنى عمهم « عبد الدار » مما كان جدهم قصى قد جعله اليه : من الندوة ، والحجابة ، واللواء ، والسقاية ، والرفادة ، اذ رأوا أنهم أولى بذلك منهم لشرفهم عليهم وفضلهم فيهم ، فتفرقت عند ذلك قريش وأجمعوا للحرب ، ثم تصالحوا على أن يقتسموا الميراث الجليل : لبنى عبد الدار ، الحماية واللواء والندوة ، ولبنى عبد مناف ، السقاية والرفادة ..

وظائف دينية ضخمة ، استحدث بعضها «قصى» ، وبعضها قديم عريق طالما اعتز به الذين تولوه ، اعتزازا وعاه الزمن وسجله الشعراء مباهين

قال « أوس بن تميم السعدى » مفاخرا بما كان قومه يتولون من اجازة الناس بالحج من عرفة :

لا يبرح النـاسُ ما حجّوا معرّفهـم
حتى يقـال : أجيزوا آلَ صـفوانا
مجـدٌ بنـاه لنـا قِدماً أوائلنـا
وأورثوه طـوالَ الدهـر أخرانا

وقال « عمير بن قيس » أحد بنى مالك بن كنانة ، يفخر بالنسأة على العرب :

لقـد علمتْ معـدٌ أن قـومى
كرام النـاس أن لهم كراما
فأى النـاس فاتونا بوتر ؟
وأى النـاس لم نعلك لجاما ؟
ألسـنا الناسـئين على معـدٍ
شـهور الحلّ نجعلهـا حراما ؟

وذلك أنه كانت للعرب أشهر حُرُم لا يحل لهم فيها قتال أو غارة أو طلبُ ثأر ، الا أن ينساها لهم أحد النسأة ..

ثم كانت للعرب فى مكة طقوس ومشاعر ومناسك منذ رفع « ابراهيم » القواعد من البيت و « اسماعيل » ، وعهـد اليهمـا الله أن يطهرا بيته للطائفين والعاكفين والركع السجود :

« ربنا واجعلنا مسلمين ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرِنا مناسكنا وتب علينا انك أنت التواب الرحيم »

« والبُدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير ، فاذكروا اسم الله عليها .. »

وقد ذكرنا آنفا ، ما كان من تقديس بعض بنى اسماعيل لحجارة الحرم التى حملوها معهم تبركا ، ثم خلف من بعدهم خلفٌ نسوا ما كانوا عليه فعبدوا الأوثان وبقيت فيهم على ذلك بقايا من عهد ابراهيم يتمسكون بها ، من تعظيم البيت والطواف به ، والحج ، والعمرة ، والوقوف على عرفة والمزدلفة ، وهَدْى البُدْن ، والاِهلال بالحج ، والتلبية

وطال المدى و « مكة » مهوى الافئــدة وقبلة العرب ، لا تكاد بقعة أخرى تجرؤ على منافستها أو تطمع فى انتزاع مجدها ، حتى ترتد دون الغاية خاسئة حسرى ..

وذاكرة الزمن قد وعت من أمر تلك المنافسة فى خارج الجزيرة وداخلها ، ما يتناقله المؤرخون من حديث البيت الذى أقامه « الغساسنة » بالحيرة ، والكنيسة التى بنـاها « أبرهة الأشرم » فى صنعاء ، ليصرف اليها حج العرب

وقد جلب اليها « الرخام المجزع ، والحجارة المنقوشة بالذهب ، من قصر بلقيس صاحبة سليمان عليه الســلام ، وكان القصر من موضـع هـذه الكنيسة على فراسخ ، وفيه بقايا من آثار ملكها ، فاسـتعان بذلك على ما أراده فى هذه الكنيسة من بهجتها وبهائها ، ونصب فيهـا صلبانا من الذهب والفضة ، ومنابر من العاج والآبنس » (١)

ثم كتب الى مولاه نجاشى الحبشــة : « انى قــد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يُبْـنَ مثلُها لملك كان قبلك ، ولست بمنْتَهٍ حتى أصرف اليها حج العرب »

لكن « أبرهة » هلك دون غايته ، وبقى البيت العتيق بمكة كما كان ــ وكما سيظل الى الابد ــ مثـابة الخائفين ، وقبلة الحجاج العابدين ، دعوة ابراهيم الخليل وأذانه فى الناس :

« وأذّن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق » (٢)

وما تزال الدنيا ــ حتى الساعة ــ تقف خاشعة حائرة أمام ذلك الجلال الذى استأثرت به « مكة » دون سواها من مدائن كبيرة ، وحواضر أجمل منظرا وأرغد عيشا وأخصب أرضا ..

وما زال كثير من المستشرقين ، فى عجب من أمر تلك العزة المنيعــة ،

---

(١) الروض الانف : ١/٣٠
(٢) سورة الحج ، آية ٢٧

تظفر بها بقعة جرداء فى واد غير ذى زرع ولا ظل ، يصفها زائر منهم فى القرن العشرين فيقول : (١)

« فى قلب الصحراء ، فى واد قفر بين سلسلتين من الجبـال الصـخرية يحجبانها فلا يحس الحاج بلوغها حتى يقع نظره على شوارعها ..

« تقع بين تلال صخرية سود ، ذات أطوال متساوية تمتد عدة أميال ، حتى ليخال المرء أن لا نهاية لتلك التـلال الجرداء ، ولا لتلك الصحراء المترامية التى يكاد ضوؤها يذهب بالأبصـار ، ولا يأمل المرء أن يختلس برهة ينجو فيها من حرارتها اللافحة . فحصاها ، وصخورها الصم ، تبعث الى السماء بخارها فتبدو كأنها فحم يحترق ، ويصعد الى السماء دخانه ..

« واذا استثنينا بضع شجرات السنط المتناثرة ، بدت معالم الحياة كأنما جمدت فى تلك الفلاة ، فالوحشـة تامة ، والسكون مسيطر ، ولا يصك أذنيك الا صفير الريح الصرصر العاتية ..

« وحتى السراب الذى يخدع المسافر فيجعله يأمل فى النخيل أو ظلال الحدائق الرطبـة ، لا وجود له ، فلا نخيل هنـاك ، ولا حدائق توحى بالتفكير فيها وتمنيها ، فما من شىء ينبت فى بلدة الرسـول المقدسـة ، والليل هو الملاذ الوحيد من حرارة الشمس الكاوية »

بهذا وصف « بودلى » البلد الحرام الذى ظلت له حرمته لا تدرك ولا تنافس ، ولعل التفاتة سريعة الى تاريخه القديم ، تجلو لنا سر تلك القداسة العريقة التى لم تنل منها السنون ولا عدت عليها عوادى الزمان ، فلمكة ــ منذ كانت ــ موقعها الاقتصادى الفذ ، ومكانتها الدينية الأولى

***

أترى حديثنا عن « مكة » و « البيت العتيق » قد طال ؟

أجل ، ولكن لا بأس علينا من ذلك ، ففى هذه البيئة المقدسة تفتحت عينا الفتاة التى عرفها التاريخ أمًّا خالدة

---

(١) بودلى الرسول « الترجمة العربية »

فيها كان منبت « آمنة بنت وهب » والدة النبى العربى اليتيم الذى بعث فى مكة ، فأيد بمبعثه ذاك ما كان لها من حرمة عريقة ظـل العرب يتوارثونها جيلا بعد جيل ، واتخذ من الكعبة التى تعبد فيها « الخليل » ، قِبلته التى يولى المسلمون وجوههم قِبلها حيثما كانوا وأنّى أقاموا ، ما عُبد الله فى الأرض !

أجل هى مكة ، بلد « آمنة » وولدها الوحيد ، ومهد رسالته ، ومثابة آبائه وأجداده ، وقبلة الذين آمنوا به أمس واليوم وغدا والى الأبد ..



بنو زهره

« ... لم يزل الله ينقلنى من الاصلاب الطيبة الى الارحام الطاهرة مصفى مهذبا ، لا تتشعب شعبتــان الا كنت فى خيرهما »

(من حديث شريف)

فى يوم لم يحدده التاريخ ، فى نحو منتصف القرن السادس الميلادى ، رأت النورَ سليلة أسرة نابهة ، من القبيلة التى كانت ذات الشأن الأول فى تلك المنطقة المقدسة ، والتىاستأثرت وحدها بوظائفها الدينية الضخمة ، وما يتبعها من أمجاد وامتيازات ..

وتحمل الأسرة اسم « زهرة » (١) الولد البكر لكلاب بن مرة بن كعب ابن لؤى ، ـــ وبه كان يكنى فيقال : أبو زهرة (٢) ـــ والشقيق الأكبر « لقصى » الذى ملك مكة ما عاش ، ثم تركها لقريش ميراثا مجيدا لم تنافسها فى شىء منه قبيلة أخرى ، حتى جاءها « محمد » ـــ حفيد قصىٍّ وزهرة ـــ بمجد الدهر وعز الأبد !

وأم زهرة وقصى ، « فاطمة بنت سعد بن سيل » أحد بنى الجدرة . بنى للكعبة جدارا حين دخلها السيل ذات مرة ، ففزعت قريش لذلك ، وخافت ان جاء سيل آخر أن يذهب شرفها ودينها . فلما بنى « عامر » الجدار ، سمى الجادر ، ولقب أولاده من بعده ببنى الجدرة .

---

(١) فى « المعارف لابن قتيبة » ان زهرة اسم امرأة عرف بها بنو زهـــرة ، قال « السهيلى » فى « الروض الانف ١/٧٩ » : « وهذا منكر غير معروف ، وانما هو جدهم كما قال ابن اسحق» يشير الى قول ابن اسحق : « فولد كلاب بن مرة رجلين : قصى بن كلاب ،وزهرة بن كلاب ٠

وقد علق ناشرو السيرة على هذا بقولهم فى الهامش : وزهرة امرأة نسب اليهــا ولدها دون الأب ، وهم أخوال الرسول ، ثم لم يزيدوا ، ولم يشيروا الى مرجعهم فى هذا ٠ ويلاحظ عليهم، انهم فى رقم ١ من هامش الصفحة نفسها ، نقلوا عن الطبرى نصا صريحا فى أن زهرة رجل ثم لم يعلقوا على هذا التناقض فى الروايات ٠ وانظر نهاية الارب للنويرى : ٢٠/١٦

(٢) نهاية الارب : ١٩/١٦

ولسعد بن سيل ، جد قصى وزهرة لأمهما ، يقول الشاعر :

ما نرى فى النـــاس شـــخصا واحـدا
مَنْ علمنـــاه ، كســعد بن ســيل
فارســا أضــبط فيــه عســرة
واذا ما واقـــف القِرن نزل
فارســا يســتدرج الخيــل كما اســ
ـتدرج الحـُر القطــامىّ الحجل (١)

***

عُرف « بنو زهرة » منذ كانوا ، بالود الخالص لبنى عبد مناف بن قصى دون اخوتهم من بنى عبد الدار . ولعلنا نذكر هنا ما نقلناه فى حديثنا عن « البيت العتيق » من أمر « قصى » حين كبر ورق عظمه ، فعز عليه ألا يبلغ ابنه البكر « عبد الدار » ما بلغه ابنه « عبد مناف » من شرف ورفعة ، فقال قصى لبكره :

« أما والله يا بنى لألحقنك بالقوم وان كانوا قد شرفوا عليه : لا يدخل رجلٌ منهم الكعبة حتى تفتحها أنت له ، ولا يَعقد لقريش لواءً لحربها الا أنت بيدك ، ولا يشرب أحدٌ بمكة الا من سقايتك ، ولا يأكل أحدٌ من أهل الموسم طعاما الا من طعامك ، ولا يقطع أمر من أمورها الا فى دارك » .

ثم كان ما كان من اذعان قريش لوصية شيخها حينا ، ثم اجماع بنى عبد مناف بن قصى : عبد شمس وهاشم والمطلب ونوفل ، على أن يأخذوا ما بأيدى بنى عبد الدار ، لشرفهم عليهم وفضلهم فى قومهم ، فتفرقت عند ذلك قريش ، فكانت طائفة مع بنى عبد مناف ، يرون أنهم بمكانتهم فى قومهم ، أحق بالأمر من بنى عبد الدار ، وكانت طائفة مع بنى عبد الدار ، يرون ألا يُنتزع منهم ما كان « قصى » جعله اليهم

وعقد كلٌ فريق على أمرهم حِلفا مؤكدا ، على ألا يتخاذلوا ولا يسلم

(١) السيرة لابن هشام ، جزء أول • وانظر أخبار مكة للازرقى : ٦١

بعضهم بعضا ، فأخرجت نساء بنى عبد مناف جفنة مملوءة طيبا ، فوضعوها لأحلافهم فى المسجد عند الكعبة ، ثم غمس القوم أيديهم فيها فتعاقدوا وتعاهدوا هم وحلفاؤهم ، ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيدا على أنفسهم ، فسموا بالمطيبين . كما تعاهد بنو عبد الدار وحلفاؤهم عند الكعبة ، على مثل ذلك ، فسموا بالأحلاف

وقد كان « بنو زهرة » مع بنى عبد مناف فى ذاك الحلف ولما عبئت كل قبيلة من المطيبين لأخرى من الأحلاف ، عبئت « زهرة » لبنى جمح ، وأقسمت لتفنينها (١)

كما كان « بنو زهرة » مع بنى عبد مناف اخوة متجاورين لا ينفصلون ، وبيوتهم أبدا متجاورة ، فحين جزأت قريش الكعبة ، كان شق الباب لبنى عبد مناف وزهرة ، وكان ما بين الركن الأسود والركن اليمانى لبنى مخزوم ومن انضم اليهم من قبائل ، وكان ظهر الكعبة لبنى جمح وسهم ، وكان شق الحجر لبنى عبد الدار بن قصى ، الخ .

***

وكذلك كان « بنو زهرة » ممن سبقوا الى تلبية النداء حين تداعت قبائل من قريش الى « حلف الفضول » قبل البعثة بعشرين سنة ، وكان أكرم حلف وأشرفه . وذلك أن رجلا من زبيد قدم الى « مكة » ببضاعة فاشتراها منه العاصى بن وائل ، وكان ذا قدر بمكة وشرف ، فحبس عن الزبيدى حقه ، فاستعدى عليه الأحلاف : عبد الدار ، ومخزوما ، وجمح ، وسهما ، وعدى بن كعب ، فأبوا أن يعينوه على العاصى وانتهروه ، فلما رأى « الزبيدى » الشر ، أوفى على جبل أبى قبيس عند طلوع الشمس ، وقريش فى أنديتهم حول الكعبة ، فصاح بأعلى صوته :

يا آل فهر لمظلوم بضاعته
ببطن مكة نائى الدار والنفَرِ

---

(١) السيرة : ١/١٣٩

ومُحرِم أشــعث لم يقضِ عمــرتَه
يا للـــرجال ، وبين الحِجْر والحَجَر

ان الحـــرام لمن تمَّت كرامتـــه
ولا حــرام لثوب الفــاجرِ الغَدِرِ

فقــام على أثر ذلك « الزبير بن عبد المطلب » وقال : ما لهــذا مَتْرَكُ !

قالوا : فاجتمعت هاشم وزهرة ، وتيم بن مرة ، فى دار عبــد الله بن جدعان : أحد بنى تيم بن مرة بن كعب بن لؤى ـــ وعبد الله هو ابن عم السيدة عائشة ـــ فصنع لهم طعاما ، وتعاقدوا على « ألا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها وغيرهم ممَن دخلها من سائر الناس الا أقاموا معه ، وكانوا على من ظلمه حتى ترد له مظلمته »

وانصفوا « الزبيدى » من العاصى .

فيروى « ابن اسحاق » عمن سمع « طلحة بن عبد الله الزهرى » أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لى به حُمرَ النعَم ، ولو أدعَى اليه فى الاسلام لأجبت»

***

من هذه الأسرة القرشية الكريمة التى عُرفت من قديم بصلة الود لبنى عبد مناف بن قصى ، والتى ذكر لها التاريخ مشاركتها فى الأمجاد الكبرى لقريش ، واتصالها الوثيق بالأحداث الجليلة التى شهدتها « مكة » قبيل الاسلام ، وتحالفهــا مع « هاشم » وبنيه فى الحلفين العظيمين : حلف المطيبين وحلف الفضول .. من هذه الأسرة كانت « آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة » التى توَّجت ذاكَ المجد العريق بالشرف الذى لا يُدركَ ولا ينال ..

أبوها « وهب » سيد بنى زهرة ، وجدها عبد مناف بن زهرة الذى يقرن اسمه بابن عمه عبد مناف بن قصى ، فيقال : « المنافان » تعظيما

وتكريما (١) .

وجدتها لأبيها : « عاتكة بنت الأوقص بن مرة بن هلال السلمية » احدى العواتك اللواتى اعتز بهن الرسول فقال :

« أنا ابن العواتك من سليم » .

ولم يكن نسب « آمنة » من جهة أمها ، دون ذلك عراقة وأصالة ، فهى ابنة « برة بنت عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصى » .

وجدتها لأمها : « أم حبيب بنت أسد بن عبد العزى بن قصى » .

ووالدة أم حبيب : « برة بنت عوف بن عبيد بن عويج بن عدى بن كعب ابن لؤى بن غالب بن فهر » .

سلالة عريقة أصيلة ، أنبتت « آمنة » لتضطلع بعبئها الجليل فى أمومتها التاريخية .

ووراثات مجيدة ، أهدتها الى ولدها فجمعت له عزّ المنافين : « عبد مناف بن زهرة بن كلاب ، وعبد مناف بن قصى بن كلاب » وجعلته ــ صلى الله عليه وسلم ــ يعتز بنسبه فيقول من حديث رواه « ابن عباس » :

« .. لم يزل الله ينقلنى من الأصلاب الطيبة الى الأرحام الطاهرة مصفى مهذبا ، لا تتشعب شعبتان الا كنت فى خيرهما » .

وعن « أنس » أنه قال :

« قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : (٢) « لقد جاءكم رسول من أنفَسكم ــ بفتح الفاء ــ وقال : أنا أنفَسُكم نسبا وصهرا وحسبا » :

نسبٌ تحسَبُ العــــلا بحُــــلاه
قلّدته نجومَهـــــا الجـــــوزاءُ
حبـــذا عقد ســـؤدد وفخـــار
أنت فيــــه اليتيمــــة العصــماء

---

(١) الروض الانف : ١/١٠٤ ــ وارجع الى الفصل الخاص « بأمهات الرسول » فى الجزء ١٦ من نهاية الارب للنويرى • ط دار الكتب

(٢) من آية ١٢٨ سورة التوبة

الـكتاب الثالث

زهرة قريش

١ ـ فتاة زهرة
٢ ـ فتى هاشم
٣ ـ العرس
٤ ـ البشرى

فتـاة زهرة

**« ... وكانت يومئـذ أفضــل
فتاة فى قريش نســبا وموضعــا »**
(ابن اسحاق)

تفتح صباها فى أعز بيئة وأطيب منبت ، فاجتمع لها من أصالة النسب ورفعــة الحسب ، ما تزهو به فى ذاك المجتمع الأرستقراطى المعتز بكرم الأصول ومجد الأعراق ..

كانت زهرة قريش اليانعة ، وبنت سيد بنى زهرة نسبا وشرفا ، وقد ظلت فى خدرها محجبة عن العيون مصــونة عن الابتذال ، حتى ما يكاد الرواة يتبينون ملامحهــا أو يجرءون على رسم صــورتها ، بل لا يكاد المؤرخون يعرفون عنها الا أنها « كانت يومئذ أفضل فتاة فى قريش نسبا وموضعا » (١) .

على أن شذاها العطر كان ينبعث من دور بنى زهرة ، فينتشر فى أرجاء مكة ويثير أكرم الآمال فى نفوس شبانها الذين زهدوا فى كثيرات سواها ، ابتذلتهن العيون والألسن ، « وعرف لبعضهن أثر فعــال فى المضاربات والمقامرات التى كانت ذائعة بين المكيين اذ ذاك ، على حين اكتفت أخريات ــ كما يقول بودلى ــ بمعاونة التجار والمقامرين فى تبديد ما ربحوا ، فسيطرت الطبيعة الحاسبة على مشاعرهن وحبهن ، فكانت عواطفهن ترتفع وتنخفض مع السوق » .

***

وقد عرفت « آمنة » فى طفولتها وحداثتها ، ابن العم « عبد الله بن عبد المطلب » بين مَنْ عرفت من أترابها فى الأسر القرشية ، اذ كان البيت

---

(١) السيرة ١٦٥/١

الهاشمى أقرب هذه الأسر جميعا الى بيت آل زهرة : جمعتهما أواصر ود قديم لم تنفصم عراه ــ على ما رأينا ــ منذ عهد الشقيقين « قصى وزهرة : ولدى كلاب بن مرة » .

أجل عرفت « آمنة » « عبد الله » قبل أن ينضج صباها ويحجبها خدرها ، وتلاقت واياه فى الطفولة البريئة على روابى مكة وبين ربوعها ، وفى ساحة الحرم الأمين ، كما جمعتهما مجامع الأسرة حيث كان عبد المطلب سيد بنى هاشم ووهب سيد بنى زهرة يتزاوران عن ود ، ويجتمعان للتشاور كلما أهمّ « قريشا » أمر ..

***

ثم حُجبت «آمنة» حين لاحت بواكير نضجها ، فى الوقت الذى كانت فيه خطوات « عبد الله » تسرع به الى الشباب .

ورنت أنظار الفتيان من بيوتات مكة الى زَهرة قريش ، وتسابقوا الى باب بيتها يلتمسون يدها ، ويزفون اليها ما لهم من مآثر وأمجاد .

فتى هاشم

« ودخل عبد المطلب ببنيه العشرة على هبل في جوف الكعبة ، فقال لصاحب القداح :
ـ اضرب على بنى هؤلاء بقداحهم « وكان عبد الله أحب ولد عبد المطلب اليه ، فكان يرى أن السهم اذا أخطاه فقد أشوى .. »

(ابن اسحاق)

لم يكن « عبد الله » بين الذين تقدموا لخطبة « زهرة قريش » مع أنه الجدير بأن يحظى بيدها دونهم جميعا ، فما كان فيهم من يدانيه شرفا ورفعة ووسامة .

فهو ابن « عبد المطلب بن هاشم » أمير مكة « الذى شرف فى قومه شرفا لم يبلغه أحد من آبائه ، وأحبه قومه وعظم خطره فيهم » .

وأمه « فاطمة بنت عمرو بن عائذ المخزومية » من صميم البيت القرشى ، وقد أنجبت لعبد المطلب ولديه « الزبير ، وأبا طالب » فكان من نسلها الامام على ، وجعفر الطيار .

ثم ولدت « لعبد المطلب » فتاه عبد الله ، أبا محمد الرسول

وجدة « عبد الله » لأبيه ، « سلمى بنت عمرو النجارية » التى كانت لا تنكح الرجال لشرفها فى قومها ، حتى يشترطوا لها أن أمرها بيدها اذا كرهت رجلا فارقته » (١) .

***

ولعل « آل وهب » لم يعجبوا لموقف « عبد الله » ، اذ لم يتقدم لخطبة « آمنة » ، فما كانوا ليجهلوا أن أباه قد نذر نذرا غليظا ، لينحرن أحد بنيه لله عند الكعبة .

---

(١) السيرة لابن هشام . ج ١

وأى القرشيين لم يعلم بقصة ذلك النذر المحتوم ، الذى يقرر مصير أبناء شيخ بنى هاشم ، وفيهم عبد الله ؟

ذلك أن « عبد المطلب » حين انتهت اليه امارة « مكة » ووليَ السقاية فيما ولِى من وظائف الحرم ، أخذ يطيل التفكير فيما يلقاه الحجيج من مشقة بسبب قلة الماء .

وذكر بئر « زمزم » التى أنقذت جده « اسماعيل » من الهلاك ، وجذبت الى « مكة » القوافل على آثار الرعاة .. وذكر ما وعته أذناه مما نقل الآباء عن الأجداد ، ورددته الرواة فى مسامر « مكة » ومجامعها عن حديث « جرهم » ودفنها « زمزم » حين أرغمت على الخروج من مكة ، فودَّ لو وفقه الله الى العثور على موضع البئر المطمورة ، اذن لكان له شأن أى شأن !

وقويت رغبته هذه مع طول التفكير ، حتى صارت مشغلة نهاره وليله ، وخايلته الرؤى فى منامه تبشره بتحقيق أمله العزيز !

روى « ابن اسحاق » عمن سمع عليا بن أبى طالب ، يحدث حديث جدِّه وزمزم فيقول (١) :

قال عبد المطلب : « انى لنائم فى الحجر اذ أتانى آت فقال : أحفر زمزم ، انك ان حفرتها لم تندم ، وهى تراث من أبيك الأعظم ، لا تنزف أبدا ولا تذَم ، تسقى الحجيج الأعظم ، مثل نعام جافل لم يقسم

فغدا « عبد المطلب » بمعوله ومعه ابنه الحارث ، ليس له يومئذ ولد غيره ، حتى اذا هم بالحفر بين وثنى « أساف ونائلة » قامت اليه قريش تصده قائلة : والله لا نتركك تحفر بين وثنينا هذين اللذين ننحر عندهما .

فالتفت « عبد المطلب » الى ابنه « الحارث » وقال :

ــ ذُدْ عنى حتى أحفر ، فوالله لأمضين ما أمِرت به

وقاومت قريش ، وعيرته بقلة الولد ، على حين أصر هو على أن يمضى

---

(١) السيرة : ١٥٤/١

فى الحفر ، فلما بدت له الحجارة التى طويت تحتها البئر ، رفع صوته مكبرا ، فعرفت قريش أنه قد أدرك حاجته ، فقاموا اليه فقالوا :

ــ يا عبد المطلب ، انها بئر أبينا « اسماعيل » ، وان لنا فيها حقا ، فأشركنا معك فيها ..

قال :

ــ ما أنا بفاعل ، ان هذا الأمر قد خُصِصتُ به دونكم ، وأعطِيتُه من بينكم .

فقالوا :

ــ فأنصفنا ، فانا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها ..

قال : لا ، ولكن هلموا الى أمر نَصَف بينى وبينكم : نضرب عليها بالقداح : أجعل للكعبة قدحين ، ولى مثلهما ، ولكم كذلك ، فمن خرج له قدحاه على شىء كان له ، ومن تخلف قدحاه فلا شىء له .

قالوا : « أنصفت » .

وضُربت القداح ، فخرج قدحا الكعبة على الذهب ، وقدحا عبد المطلب على الأسياف والدروع ، وتخلف قدحا قريش !

ومن ثم أقام عبد المطلب سقاية زمزم للحجاج ، لا ينازعه فى مائها أحد من قومه قريش .

تلك هى قصة زمزم وعبد المطلب ، كما رواها كتاب السيرة ومؤرخو ذلك العهد من المسلمين ، أتينا بها هنا تمهيدا لحديث « النذر » الذى يتصل « بعبد الله » أقوى اتصال .

ذلك أن أباه عبد المطلب ــ حين اشتغل بحفر البئر ــ لم يكن له من الولد كما ذكرنا سوى ابنه الحارث ، فلما لقى من قريش ما لقى ، وسمع تعييرها اياه بقلة الولد ، نذر يومئذ ، لئن وُلد له عشرة نفر ثم بلغوا حتى يمنعوه ، لينحرن أحدهم عند الكعبة .

وتوافى بنوه عشرة : الحارث ، والزبير ، وأبو طــالب ، وأبو لهب ،

والغيداق ، وضرار ، والعباس ، وعبد الكعبة ، وقثم ، وعبد الله .

وكان « عبد الله » أصغرهم جميعا (١) ، فتلبث عبد المطلب حتى اذا عرف أنهم بحيث يمنعونه ، دعاهم الى الوفاء لله بنذره فلبوا طائعين ..

***

أصبحت « قريش » ذات يوم من شهر جمادى الأولى قبل مبعث النبى بنحو احدى وأربعين سنة ، ولا حديث لها الا « عبد المطلب » الذى خرج ببنيه العشرة الى الكعبة ، وقد حمل كلٌ منهم قدحا عليه اسمه ، واستسلموا للمصير المحتوم راضين .

وخفقت قلوب نساء قريش جميعا عطفا وحنانا فى انتظار اللحظة الفاصلة ، ولعل عددا منهن قد ذهب فيمن ذهب الى الكعبة ، ليسمع كلمة السماء فى الذبيح المختار ، على حين بقيت « آمنة » مع من بقين ، لا تستطيع أن تبرح دار أبيها ، وان أقامت تترقب الأنباء فى لهفة ، وهى لا تدرى أى بنى العم يختاره ربُّ الكعبة وفاءً بنذر شيخ الهاشميين

ومضت الساعات ثقيلة بطيئة ، وما من عائد يخبر عما كان هناك فى الحرم .

***

ثم انتشر الخبر فجأة فى سرعة البرق فملأ أرجاء مكة ، متنقلا بين أندية قريش ودورها حتى بلغ مسمع « بنت وهب » :

لقد اختارت الكعبة « عبد الله » ذبيحا .

ووجمت « آمنة » للنبأ كما وجمت له كل قرشية يعز عليها أن ينحر زين شباب مكة وأعز أبناء « عبد المطلب » على أبيه وعلى قريش جميعا !

وبكت بنات عبد المطلب ، وكنَّ قياما هناك ينتظرن أمر الله (٢)

وتتابعت الأخبار بعد ذلك سراعا ، تصف كيف دخل شيخ هاشم ببنيه على « هبل » فى جوف الكعبة ، وأخبر صاحبَ القداح هناك بنذره ، ثم

---

(١) السيرة : ١/١١٤ — شرح المواهب للزرقانى ١/٩٤ — نهاية الارب : ١٦/٥٠ ، ٥١
(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد : ١/٥٣ قسم أول

قاوم عاطفــة الأبوة بكل ما يملك من شجاعة وتصميم وايمان ، ليقول لصاحب القداح :

« اضرب على بَنيّ هؤلاء بقداحهم هذه » !

فأعطاه كل واحد من الأبناء العشرة قدحه الذى فيه اسمه ، وأبوهم يُنقّل عينيه بينهم جميعا ، حتى استقرت نظراته آخر الأمر على أصغرهم « عبد الله » ففاض قلبه رقة وحبا واشفاقا ، ورأى « أن السهم اذا أخطأ هذا الفتى الحبيب ، فقد أشوى ! »

وحانت اللحظة الحاسمة :

ضرب صاحب القداح ، و « عبد المطلب » قائم عند هبل يدعو الله ، فخرج القدح على عبد الله !

هنالك جمع الشيخ كيانه المهتز ، وأخذ فتاه الغالى بيد ، وأمسك الشفرة باليد الأخرى ، ثم أقبل به على « أساف ونائلة » ليذبحه ! (١)

بهذا كله ، طارت الأنباء فى أرجاء « مكة » حتى بلغت حيّ بنى زهرة ، ثم أمسك الراوى ، وخيم الوجوم الحزين على الأفق ، وجمدت الأعين فما تجود بدمعة !

وأقفرت دار سيد بنى زهرة من رجالها ، كما أقفرت أندية قريش جميعا ودورها .. ترى هل ذهبوا ليشهدوا مذبح عبد الله ، ويكونوا الى جانب أبيه وهو يعانى التجربة الرهيبة !

هكذا ظنت « آمنة » وتمنت فى تلك اللحظة ، لو استطاعت أن تنطلق فى اثر قومها وهم يسعون الى الحرم مهرولين ، ولكن أنى لها ذاك وهى المحجبة المصون ؟ ! وهبها استطاعت أن تفعل ، أفقادرة هى على أن تصنع شيئا من أجل انقاذ ابن العم ؟ لقد قضى الأمر وفات أوان الصلاة والدعاء

***

وولى النهار ..

---

(١) السيرة لابن هشام : ١٦٢/١ ـ الطبرى ١٧٣/٢ ـ نهاية الارب : ٥٤/١٦

وأقبل ليل كثيف السواد متراكب الظلمات ، ورجال قريش لم يئوبوا بعد الى دورهم

ما الذى أمسكهم هناك وعاقهم عن الأوبة ؟ لم تكن « آمنة » تدرى ، حتى عاد من يخبر أن الرجال قد ارتحلوا عن « مكة » فما فيها منهم الليلة سامر !

وانبثق شعاع نحيل من الأمل وسط الظلمات المتراكبة ، حين مضى الراوى فى حديثه يقول :

« لم يكد الأب يهم بذبح فتاه ، حتى قامت اليه قريش من أنديتها فقالوا :

ــ ماذا تريد يا عبد المطلب ؟

قال : « أفى بنذرى »

فقالت له قريش وبنوه :

ــ والله لا تذبحه أبدا حتى تعذر فيه . لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتى بابنه حتى يذبحه ، فما بقاء الناس على هذا ؟ (١)

ووثب المغيرة بن عبد الله المخزومى ــ وهو من آل فاطمة بنت عمرو المخزومية : أم عبد الله والزبير وأبى طالب ــ فأمسك بيد عبد المطلب وهو يصيح :

ــ والله لا تذبحه أبدا حتى تعذر فيه ، فان كان فداؤه بأموالنا فديناه

وأضاف شيوخ قريش :

ــ فلتنطلق بولدك الى عرّافة بخيبر ، لها تابع ، فلتسألها : ان أمرتك بذبحه ذبحته ، وان أمرتك فيه بأمر لك وله فيه فرج ، قبلته (٢) ..

فنزل « عبد المطلب » على رأى القوم ، وانطلقوا فى طريق « خيبر » يلتمسون الكلمة الفاصلة من عرافة الحجاز

مضوا وخلفوا من ورائهم قلوبا واجفة وعيونا مسهدة ، وجنوبا قد

---

(١) السيرة لابن هشام : ١٦٢/١ ــ والكامل لابن الاثير : ٦/٢

(٢) اختلفوا فى اسم العرافة ، فقيل : قطبة ، وقيل : سجاح . أنظر السهيلى (١٠٣/١) والزرقانى (٩٦/١) والنويرى «٥٥/١٦»

نبت بها المضاجع ، وألسنة ضـارعة فى جوف الليـل ، لا تفتأ تدعو الله للمستشهد الصابر : عبد الله ، فتى هاشم ..

وأعقبت رحيـلهم أيام قاربت العشرين عدًا ، وانيات الخطو بطيئات المسرى ، كأنما كانت تجر أثقالا من الصم الصلاب ..

وبقيت أندية قريش ومسامرها طوال تلك المدة ، مقفرة خلاء

وغشيت بيوتها غاشية من القلق والهم والانتظار ..

وتعلقت العيون والقلوب بمشارف الطريق الآتى من الشـمال ، ترقب عودة الركب الراحل ..

وأرهفت الآذان لعلها تتسمع نبأ عن مصير الفتى العزيز ..

وتوقفت الحياة أو كادت فى تلك الأيام العشرين ، فقـد غاب عن « مكة » أميرها وفتاها ، ومعهما سادة قريش ونجومها الزهر ..

وراح العبيد والاماء يسعون بين الدور وبين ممر القوافل ، يلتمسون هنالك وافدا من « خيبر » يعرف شيئا من أنباء الركب الغائب ..

وشهدت الليالى نفرا من العقائل الكريمات ، يتسللن من أحياء قريش محجبات بسـتار من الظلمـة الحالكة ، فاذا بلغن الحرم تعلقن بالكعبة مبتهلات متوسلات ، ثم انطلقن على أثر ذلك الى « المسعى » بين الصفا والمروة ، يدعون الله أن يستجيب لضراعتهن كما استجاب لضراعة «هاجر» فى هذا المكان ، وأن ينقذ « عبد الله » كما أنقذ جده « اسماعيل » !

***

ثم كان لهذا كله آخر ، حين لاحت على الأفق الشمالى سحب من غبار مستثار ، تكشفت عن قافلة تغـذ السير الى « مكة » فعرج الغلمان على قمم الروابى ورءوس الجبـال ، يستكشفون أمر القـافلة ، فاذا الركب يدخل « مكة » على عجل ساعيا نحو ساحة الحرم ، وهناك ترجلوا جميعا ولبثوا قائمين يدعون ، على حين مضت رسـلهم الى أحياء قريش تجمع الابل وتسوقها نحو « البيت العتيق »

وسعى غلام من موالى « بنى زهرة » ، يحدث سيدات البيت القرشى عما شاع فى البلد الحرام وذاع ، من خبر العرافة والنذر :

حدثوا أن القوم انطلقوا حتى جاءوها بخيبر ، وقص عليها « عبد المطلب » خبره وخبر ابنه « عبد الله » وما أراد به وفاء بنذره فيه . فقالت لهم :

ــ ارجعوا عنى اليوم حتى يأتينى تابعى فأسأله ..

فلما مضوا عنها قام « عبد المطلب » ليلته يدعو ربه ، ثم غدوا عليها فقالت لهم :

ــ قد جاءنى الخبر : كم الدية فيكم ؟

أجابوا : عشر من الابل ..

قالت :

ــ فارجعوا الى بلدكم وقربوا صاحبكم وقربوا عشرا من الابل ، ثم اضربوا عليها وعليه بالقداح ، فان خرجت على صاحبكم فزيدوا من الابل عشرا فعشرا حتى يرضى ربكم ، وان خرجت على الابل فانحروها عنه ، فقد رضى ربكم ونجا صاحبكم ..

ولم يكد الغلام يتم قصته ، حتى سمعت نساء « وهب » ضجة عالية تقترب ، فقمن يستطلعن الخبر ، فاذا جماعة من وجوه « هاشم وقريش » يتقدمهم « عبد المطلب » والى يمينه .. « عبد الله » وهم يقتربون من بيت سيد « زهرة »

اذن فقد نجا فتى هاشم !

ما أوسع رحمتك يارب !

وهمت « آمنة » بأن تسعى الى أبيها لتسأله كيف كانت النجاة ، لولا أن فوجئت بأبيها نفسه يقف بباب الدار مرحبا بالوافدين الكرام

العـــرس

« ثم انصرف عبد المطلب آخذا بيد عبد الله ـ اثر افتدائه من الذبح ـ فخرج حتى أتى به وهب بن عبد مناف بن زهرة .. وهو يومئذ سيد بنى زهرة نسبا وشرفا ، فزوجه ابنته آمنة .. »

(ابن اسحاق)

فيم كان مقدمهم ؟

لم يطل بآمنة الوقت لتعرف الخبر السعيد ، فلقد أقبلت عليها أمها « برة » بعد قليل ، متهللة الوجه مشرقة الاسارير ، لتحدثها عن « عبد الله » كيف افتدى من النحر :

« قام عبد المطلب يدعو الله ، ثم قربوا عبد الله وعشرا من الابل ، وضربوا فخرج القدح على عبد الله

« فزادوا عشرا أخرى وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا ، فخرج القدح على عبد الله ..

« ثم ما زالوا يزيدون عشرا بعد عشر ، فيخرج القدح على عبد الله ..

« حتى بلغت الابل مائة ، وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا فخرج القدح ، لأول مرة ، على الابل ، فهتفت قريش ومن حضر :

ـ قد انتهى رضا ربك يا عبد المطلب !

فهز رأسه فى ارتياب ثم قال :

ـ لا والله حتى أضرب عليها ثلاث مرات !

« فضربوا على عبد الله وعلى الابل المائة ، وقام « عبد المطلب » يدعو الله ، فخرج القدح على الابل ، ثم عادوا الثانية ، فالثالثة ، والقدح يخرج

عليها !

« واذ ذاك اطمأن قلب الشيخ المؤمن ، ونحرت الابل ، ثم تركت لا يصد عنها انسان ولا سبع ! » (١)

وسكتت الأم « برة » وقد بان عليها أنها لا تزال تطوى الذى جاءت من أجله ، وراحت ترقب أسارير ابنتها « آمنة » فى لهفة ، لكن الفتاة أفلحت فى أن تخفى رغبتها فى معرفة بقية الحديث ، وراء قناع رقيق من المداراة ، ودلها قلبها على أن أمها ما جاءت تقص عليها قصة الفداء الا تمهيدا لشأن آخر

واذ هما فى مجلسهما ذاك ، ترنو احداهما الى الاخرى كأنما تريد أن تعرف ماذا تخفى ، دخل عليهما « وهب » (٢) ليقول لابنته فى رقة وحنو :

« ان شيخ بنى هاشم قد جاء يطلبك زوجة لفتاه عبد الله » !

وعاد من فوره الى ضيفه الكريم ، وترك « آمنة » فى شبه ذهول ، ما لبثت أن أفاقت منه على صوت قلبها يخفق عاليا حتى ليكاد يبلغ مسمع أمها الجالسة الى جوارها : أحقا آثرتها السماء بفتى هاشم زوجا ؟

ووضعت « آمنة » يدها على هذا القلب وقد خشيت أن ينم خفقانه عن عنف انفعالها بالذى سمعت ، ولم تفت هذه الحركة أمها . فاحتضنتها فى حنو غامر ، خدَّر مقاومة الفتاة فأسلمت نفسها الى صدر الأم ، وأباحت لقلبها أن يخفق كيف شاء !

***

وطاب لها أن تبقى هكذا فى حضن أمها : صامتة هادئة ، لولا أن سيدات الأسرة توافدن واحدة فى اثر أخرى ، مهنئات مباركات

وأحطن بالعروس يتحدثن عما ترامى اليهن من تعرض نساء من قريش « لعبد الله » ووقوفهن فى طريقه بين الحرم ودار « وهب » يعرضن

---

(١) السيرة لابن هشام : ١٦٣/١

(٢) فى السيرة لابن هشام « ١٦٤/١ أن وهبا هو الذى زوج ابنته آمنة . والذى فى طبقات ابن سعد « ٥٨/١ » أنها كانت فى حجر عمها وهيب ، ويضيف الخبر أن عبد المطلب خطب فى المجلس نفسه هالة بنت وهيب ، وهى أم ولده حمزة

نفسهن عليه عرضا صريحا بادى اللهفة ..

وسمعت « آمنة » من حديثهن ذاك عجبا !

سمعت أن « (١) رقية بنت نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصى » القرشية الأصيلة ، استوقفت « عبد الله » قريبا من الكعبة فقالت له :

ــ أين تذهب يا عبد الله ؟

فأجاب فى ايجاز :

ــ مع أبى ..

قالت « رقية » :

ــ لك مثل الابل التى نحرت عنك اليوم ، ان قبلتَ أن أهب لك نفسى الساعة !

فرد عليها معتذرا فى تلطف :

ــ أنا مع أبى ، ولا أستطيع خلافه ولا فراقه ..

وقيل ان « فاطمة بنت مر » ــ وكانت من أجمل النساء وأعفهن ، أو كانت كما ذكر ابن الاثير ، كاهنة من خثعم (٢) ــ دعته الى نكاحها فنظر اليها وقال :

أما الحرام فالممات دونه
والحل ، لا حل فأستبينه
فكيف بالأمر الذى تبغينه

وقيل كذلك ان « ليلى العدوية » عرضت نفسها عليه يومئذ ، فلم يستجب لها ..

***

بهذا ومثله كانت النساء يتحدثن الى « زهرة قريش » حين توافدن

---

(١) نقل السهيلى « ١٠٢/١ » أن اسمها رقيقة · ونقل النويرى «٥٨/١٦» ان اسمها قتيلة لكن لا خلاف فى أنها أخت ورقة « طبقات ابن سعد ٥٨/١ أول »

واقرأ حديث من عرض أنفسهن على عبد الله ، فى الجزء الاول من السيرة ، وفى تاريخ الطبرى ١٧٤/٢ . والكامل لابن الاثير ١٧٤/٢

(٢) الكامل : ٤/٢

عليها للتهنئة ..

وقائلة تقول :

ـ اعذرن هؤلاء المتعرضات لعبد الله ، فما رأين مثله وسامة وسحرا

فتعقب أخرى :

ـ يا للفداء الغالى ! هل سمعتن بأحد افتدى قبله بمائة من الابل ؟

وتضيف ثالثة :

ـ هنيئا لك يا « آمنة » ، لقد ظفرت بمن « تقطعت قلوب سيدات مكة من أجله » !

ترى هل حدث ذلك كله ؟

أكثر المؤرخين الاقدمين يروونه فى غير شك ولا ارتياب ، أما المحدثون فنرى منهم « الدكتور محمد حسين هيكل » يقرر أن الوقوف لتقصى أمثال هذه الروايات عن تعرض النساء لعبد الله ، لا غناء فيه ، وكل ما استطاع الدكتور هيكل أن يطمئن اليه ، هو « أن عبد الله كان شابا وسيما قويا ، فلم يكن عجبا أن تطمع غير « آمنة » فى الزواج منه ، فلما بنى بها تقطعت بغيرها أسباب الامل ولو الى حين »

على حين نسمع « بودلى » يقول فى كتابه (الرسول) :

« وكان عبد الله قد اشتهر بالوسامة ، فكان أجمل الشباب وأكثرهم سحرا وذيوع صيت فى مكة ، ويقال انه لما خطب « آمنة بنت وهب » ، تحطمت قلوب كثيرات من سيدات مكة »

ولو كنا هنا نعرض حياة « آمنة » عرضا تاريخيا بحتا ، لوجدنا فى الوقوف لتقصى هذه الروايات غناء كثيرا ، أما ونحن نعرض المادة التاريخية عرضا أدبيا فنيا ، فلا معدى لنا عن الالتفات اليها ، كيما نرى حقيقة الصورة التى تمثلها القوم للأم التى ولدت بطلنا الأعظم ..

ونكاد لا نشك فى أن « آمنة » سمعت وهى على وشك الزفاف ، كثيرا عن تطلع غيرها من القرشيات الى فتاها الموموق ، وأنها تلقت التهنئة

الحارة بزواجها من الشاب الهاشمى الذى ملأ الاسماع بقصة فدائه ، كما ملأ الأعين بسحر جماله ونضارة حيويته ..

حتى اذا نفضت النسوة ما لديهن من أحاديث ، مضت « آمنة » تفكر فى فتاها الذى لم يكد يفتدى من الذبح حتى هرع اليها خاطبا ، زاهدا فى كل أنثى سواها ، غير ملق أذنيه الى ما سمع من دواعى الاغراء !

واستمرأت طعم تأملاتها فى زحمـة المهنئات ، ولذّ لها أن تغيب عنهن وهى بينهن حاضرة ، فراحت تتمثل « عبـد الله » وهو يدارى عواطفـه طويلا فلا يتقدم لخطبتها قبل أن يعرف مصيره ، حتى اذا نجا لم يهرع الى داره وآله ، وانما كانت دار « آمنة » قبلتـه بعد الحرم ، ومقصده اثر النجاة ومبتغاه ، فهو يسعى اليها لم يكد يطيق الصبر عنها لحظة بعد الفداء ..

كم فكر فيها « عبد الله » ؟ !

وماذا عانى حين التزم الصمت والانتظار ؟

وكيف يكون لقاؤهما بعد كل الذى احتمله وعاناه ؟ !

أسئلة عرضت « لآمنة » وهى فى حلمها المستغرق ، حتى أفاقت منه على ضجة الدار تتهيأ لعرس عاجل قريب ..

***

كانت قصة الفداء قد هزت قلوب المكيين تعلقا بالشـاب الذى مست الشفرة منحره وهو صابر مستسلم لأمر الله ، راض بقدره ، حتى اذا لم يبق بينه وبين الموت الا قيد شعرة ، أنقذه الله بأغلى فدية عرفها العرب !

وأضيئت المشـاعل فى شتى أرجاء البـلد الحرام الآمن ، وحفلت دار الندوة بوجوه قريش وساداتها ، وسهرت مسامر البلدة المقدسة تسترجع قصة الذبيح الأول حين مضى به أبوه « ابراهيم » الى قمـة الجبل لكى يذبحه طاعة وتعبدا ، فافتداه الله بكبش بعد أن كان من الموت قاب قوسين أو أدنى ..

انها القصة التى تناقلها آباؤهم وأجدادهم طبقة بعد طبقة ، وجيلا بعد

جيل ، تعود فتمثل على المسرح نفسه فى البيت العتيق الذى رفع القواعد منه ، ابراهيم وولده اسماعيل ، الذبيح المفتدى ..

والبطل اليوم ، هو حفيد أصيل من ذرية « اسماعيل » التى انتشرت فى الأرض وتوارثت مجد الجدود ..

وربما خطر لبعض السمار فى ليلة العرس تلك ، أن يصلوا ما بين الذبيحين « اسماعيل وعبد الله » ، وربما أبعد واحد أو أكثر ، فحاول أن يتلمس وراء ستار الغد المحجب ، ما ينتظر « عبد الله » من أمر ذى شأن ، كذلك الذى كان لاسماعيل بعد الفداء ..

***

واستغرقت الأفراح ثلاثة أيام بلياليها ، كان « عبد الله » أثناءها يقيم مع عروسه فى دار أبيها على عادة القوم (١) ، حتى اذا أشرق اليوم الرابع ، سبقها الى داره كى يهيئها لاستقبال الوافدة العزيزة ، على حين مضت هى فى ذاك اليوم تملأ عينيها من دار أبيها التى استقبلتها وليدة ورعتها صبية وفتاة ، وأنضجتها عروسا ..

ثم راحت تودع أهلها وأترابها وصواحب صباها الغرير . وشغلها ذلك كله ساعات النهار وقطعة من المساء ، ثم جمعت نفسها وسارت فى رفقة من آلها متجهة الى دنياها الجديدة ، وهى تتلفت بين خطوة وأخرى الى الربوع التى خلفتها من ورائها ، فتحس لفراقها لذعة خفية من شجو وحنين ، زادهما المساء الساجى مرارة وعذوبة معا !

واستغرقتها مشاعرها ، فأمسكت طوال الطريق عن الكلام ، وسارت خاشعة مخدرة ، كأنها طيف رقيق يسرى حالما !

حتى تلقاها « عبد الله » على باب داره متلهفا مشوقا ، فرفعت اليه وجهها المليح ، وقد أضاءه شحوب خفيف ، وتألقت فى عينيها دمعتان صافيتان ..

وأدرك « عبد الله » ماذا بها ، فلم يشأ أن ينقلها بغتة من ذكريات

---

(١) السيرة لابن هشام : جزء أول ، وانظر نهاية الارب : ٥٧/١٦

ماضيها الذى فارقته وشيكا ، بل قادها فى رفق الى رحبة الدار الواسعة ، حيث أعدت هنالك مجالس للضيوف الأعزاء الذين صحبوا العروس الى بيتها ..

وراح يريها بيتها الجديد ..

ولم يكن البيت كبيرا ضخم البناء ، لكنه اذا قيس ببيوت مكة يومئذ ، عد رحبا مريحا لعروسين يبدءان حياتهما المشتركة ..

كان ــ كما وصفوه : (١) ذا درج حجرى يوصل الى باب يفتح من الشمال ، ويدخل منه الى فناء يبلغ طوله نحو اثنى عشر مترا فى عرض ستة أمتار ، وفى جداره الأيمن باب يدخل منه الى قبة ، فى وسطها ــ بميل الى الحائط الغربى ــ مقصورة من الخشب ، أعدت لتكون مخدع العروس ..

***

وترك « عبد الله » عروسه فى مخدعها مع رفيقاتها من سيدات « آل زهرة » ، ثم خرج الى رحبة الدار الواسعة ، حيث الضيوف الكرام الذين صحبوا العروس الى بيتها ..

ومضى وهن من الليل والقوم ساهرون ، يباركون العتبة الجديدة التى انتقلت اليها زهرة قريش ، ويدعون للزوجين الكريمين : أعز من عرفت الحجاز حسبا وأعرقهم نسبا ..

---

(١) محمد لبيب البتانونى : الرحلة الحجازية

البشرى

وسمعت هاتفا يهتف بها فى رؤياها :
« انك قد حملت بسيد هذه الامة»
(ابن اسحاق)

ثم آب الضيوف الى منازلهم ، وهجع الكون وسكنت الدنيا ، و «عبد الله » جالس الى « آمنة » يؤنسها بحديث مثير عما رأى فى رحلته الى كاهنة الحجاز ..

سألته العروس وقد أنساها لطفه ما كانت تحسه من شجن لفراق آلها :

ـ هلا حدثتنى يا عبد الله عن أولئك النسوة اللاتى شغلنك فى أيامك هذه ؟

فانبسطت أساريره لاقبالها عليه ، وقال يحييها :

« ما شغلننى عنك قط يا آمنة ، ولكنه الذى سمعتِ من تعرضهن لى ، وانصرافى عنهن اليك وحدك !

« على أن للقصة بقية لما تسمعى بها ، لأنها حدثت فى يومنا هذا ، اذ كنت عائدا من بيت أبيك لكى أهيىء دارى لاستقبال عروسها الغالية ، وشغلتُ بهذا يومى كله ، فلم أكد أحدث أحدا بما كان ! »

قالت وقد استثار أشواقها لمعرفة القصة :

ـ أخاطبات جديدات يطلبن القرب من فتى مكة الأوحد ؟

فتبسم ضاحكا من دعابتها الحلوة ، وأجاب :

ـ كلا يا آمنة ، بل زاهدات فيه منصرفات عنه ، كأن لم يكن هو نفسه الذى تعلقن به منذ بضعة أيام ، وأنستهن رغبتهن فيه ما عرف عن مثلهن من صد وتمنع !

وأمسك فترة يرنو الى صاحبته ، كأنه يريد أن يلمس وقع الحديث

عليها ، فما زادت على أن أومأت اليه ليمضى فى قصته

فاستجاب لايماءتها واستطرد يقول :

ــ أجل يا ابنة وهب ! زاهدات فى فتاك كأنه أبدل خلقا جديدا . مررت بهن اليوم فى طريقى بين دار أبيك ودارنا هذه ، فأشحن عنى بوجوههن معرضات ، الى حد أثار عجبى وفضولى الى معرفة سر هــذا الانقلاب ، فسألت احداهن « رقية بنت نوفل » :

« مالك لا تعرضين علىّ اليوم ، ما كنت عرضتِ علىّ بالأمس ؟ »

فكان جوابها العجيب أن قالت :

« فارقك النور الذى كان معك بالأمس ، فليس لى بك اليوم حاجة ! »

وكذلك أعرضت عنى « فاطمة بنت مر » قائلة : (١)

« قد كان ذلك مرة ، فاليوم لا » ثم أضافت : « انى والله ما أنا بصاحبة ريبة (٢) ، ولكنى رأيت فى وجهك نورا فأردت أن يكون لى ، فأبى الله الا أن يجعله حيث أراد ، فما صنعت بعدى ؟ »

قلت : « زوجنى أبى آمنة بنت وهب »

فأنشدت : (٣)

لله ما « زهرية » ســـــــــلبت
منــك الذى اســتلبت وما تدرى !

ثم قالت فى تحسر :

ولما قضت منه « أمينــة » ما قضت
نبــا بصرى عنــه وكلّ لســـــانى

وسألت الثالثة : « ليلى العدوية » ماذا صدها عنى ؟.. فأجابت :

« مررت بى وبين عينيك غرة بيضاء ، فدعوتك فأبيت علىّ ، ودخلتَ على آمنة فذهبتْ بها »

---

(١) ذهبت كلمتها هذه مثلا ، أنظره فى مجمع الامثال للميدانى : ٣٤/٢

(٢) هذه عبارة الطبرى : ١٧٤/٢ وابن الاثير : ٤/٢ وفى نهــاية الارب : انى والله لست بصاحبة زنية ٦١/١٦

(٣) انظر بقية الابيات فى تاريخ الطبرى « ١٧٤/٢ » وفى نهاية الارب : ٧٧/١٦

وصمت « عبـد الله » وسكتت العروس ، وقد راحا يفكران فى ذلك الموقف الغريب الذى وقفته نسوة قريش من « عبد الله »

ثم كانت « آمنة » هى التى قطعت الصمت فجأة ، بأن طلبت من زوجها أن يعيد عليها ما كان بينه وبين « رقية بنت نوفل »

فتساءل « عبد الله » وقد رابه ما يبدو عليها من اهتمام :

ــ ولماذا تسألين عن رقية هذه دون سواها ؟

أجابت « آمنة » فى جد :

ــ ستعرف بعد ، فهلا أعدت لى ما قالت « رقية » ؟

فلم يسع « عبد الله » الا أن يقول :

ــ سـألتها : مالك لا تعرضـين علىَّ اليوم ما كنتِ عرضت علىَّ بالأمس ؟

فأجابت : فارقك النور الذى كان معك ، فليس لى بك اليوم حاجة

فعلقت « آمنة » بعد فترة تأمل :

ــ والله يا ابن العم ، انى لأرى لهذا الأمر ما بعـده ، فرقيـة أخت « ورقة بن نوفل » وهو ــ كما تعلم وأعلم ــ قد تنصر واتبع الكتب ، وبشر بأن سيكون فى هذه الأمة نبى !

ثم استطردت تقول بعد صمت قصير :

ــ ترانى نسيت أن فاطمـة بنت مر ، قرأت الكتب كذلك وهى بعـد كاهنة خثعم (١)

فحدق « عبد الله » فى زوجته مليا ثم هتف :

ــ ترين يا آمنة أننا ..

فلم تدعه « آمنـة » يكمل عبارته ، واسـتغرقت فى حلم رائع مثير ، استعادت فيه كلَّ الذى كانت الجزيرة تمتلىء به من شائعات وارهاصات عن النبى المنتظر !

---

(١) تاريخ الطبرى : ١٧٤/٢ والنهاية لابن الاثير : ٤/٢

ونامت ليلتها ، وما تكف هـذه الرؤيا عن الالمام بها ، و « عبد الله » الى جانبها ساهر يقظان ، يرقب فى نور الفجر الوليد تلك الابتسامة الرقيقة التى يتألق بها وجهها الحلو ، وهى نائمة تحلم

حتى اذا دنا الصـبح ، استيقظت العروس « آمنة » من نومها الهنىء وأقبلت على زوجها تحدثه عن رؤياها :

رأت كأن شعاعا من النور ينبثق من كيانها اللطيف فيضىء الدنيا من حولها حتى لكأنها ترى به قصور بصرى من أرض الشام . وسمعت هاتفا يهتف بها : « انك قد حملت بسيد هذه الأمة (١) .. »

***

وبقى « عبد الله » مع عروسه أياما لم يحدد لنا التاريخ عددها ، ولكنها عند جمهرة المؤرخين لم تتجاوز عشرة أيام ، اذ كان عليه أن يلحق بالقافلة التجارية المسافرة الى غزة والشام فى عير قريش

وأغلب الظن أن كلام « رقية بنت نوفل » عن النور الذى فارق عبد الله الى آمنة ، قد شـغل أويقات السمر فى تلك الأمسـيات المعدودات التى قضاها العروسان معا قبل أن يفترقا ، وأن الأحلام قد حلقت بهما فى آفاق عليا ، خايلتهما فيها أمنية عزيزة غالية ، قلّ من شارفها أو طمح اليها

وربما تذاكر خبر « سـوداء بنت زهرة الكلابيـة » اذ ولدت ورآها أبوها زرقاء شيماء فأراد وأدها ، فأتى الحجون ليدفنها هناك ، فلما حفر لها الحافر سمع هاتفا يقول :

« لا تئد الصبية وخلها فى البرية » ..

وتكرر ذلك ، فعاد الى أبيها فقال : ان لها لشأنا ، وتركها . فكانت كاهنة قريش ، فقالت يوما لبنى زهرة : ان فيكم نذيرة أو تلد نذيرا ، فاعرضوا علىّ بناتكم . ففعلوا ، فقالت لكل واحدة قولا ظهر بعد حين ، حتى عرضت عليها آمنة فقالت : هذه النذيرة ، أو تلد نذيرا (٢)

---

(١) السيرة لابن هشام : ١٦٦/١

(٢) الروض الانف : (٤١/١)

الكتاب الرابع

العروس الأرملة

١ ـ فراق
٢ ـ رسول الى يثرب
٣ ـ غائب لا يئوب !

فـراق

ثم حانت ساعة الفراق !

ودع « عبـد الله » زوجتـه الحبيبة حين أذن المؤذن برحيل القافلة ، فتشبثت « آمنة » بفتاها وقد أحست كآبة غامرة شحب لها وجهها وارتعد كيانها ، فربت « عبد الله » على يدها الصغيرة فى حنو ، وهو يظن أن الذى بها لا يعدو أن يكون وحشة الفراق الوشيك ..

ثم انتزع نفسه منها انتزاعا ، ووقف فى فناء الدار يقول لها وهو يتكلف التصبر ويتجمل بالمداراة :

ــ ان هى الا بضعة أسابيع ، ثم أعود اليك يا آمنة على جناح الشوق واللهفة ..

فهمست فى صوت أبح مختنق :

ــ وماذا أصنع بنفسى وأنت بعيد ؟

أجاب متضاحكا :

ــ تسامرين طيفى الذى لن يبرح مطيفا بك محوما عليك ، وترعين قلبى الذى أدعه هنا وأسافر بجسم ينزع أبدا الى أعز موضع ، ويحن الى أحب وأجمل من خلق الله !

فتراخت يداها وأنّت فى ضعف :

ــ ويلى يا عبد الله من ليالىَّ الطوال !

فصاح بها وهو يخطو نحو باب البيت ووجهه اليها :

ــ لا ويل لك يا آمنة ! ستشـاغلك طوال لياليـك أحلام عِذاب . أفنسيت حديث « رقيـة بنت نوفل ، وفاطمـة بنت مر » ورؤيا الأمس القريب ؟

واذ بلغ الباب ، انفلت مسرعا قبل أن تخونه شجاعته وتغلبه عواطفه ،

على حين بقيت « آمنة » حيث كانت ، واقفة بباب مخدعها المقفر ، وقد وضعت يدها على قلبها خشية أن يتصدع ..

وأدركتها بعد ســاعة ، جاريتهــا « بركة أم أيمن » فقادتها برفق الى فراشها ، ثم جلست الى جانبها ترعاها مشفقة عليها مما تلاقى ..

***

ومرت أيام وليال ، و « آمنة » فى فراشها لا تبرحه ، تسامر أشجانها وترسل قلبها فى اثر الحبيب الراحل . وقد حاول أهلها ، كما حاول « عبد المطلب » أن يصرفوها عن وحدتها حرصــا على صحتها ، لــكنها آثرت العزلة ، على الأنس بالأهل والصواحب ، بل لعلها كرهت أن يفسد أحد عليها هذه العزلة لما كانت تجده فى مسامرة طيف الغائب ، من شجن ولذة

ومضى شهر لا جديد فيه ســوى أن « آمنة » شعرت بالبادرة الأولى للحمل ، وكان شعورها به رقيقا لطيفا حتى لتقول :

ما شعرت أنى حملت به ولا وجدت له ثقلة كما تجد النساء ، الا أنى أنكرت رفع حيضتى ، على أنها كانت ربما ترفعنى وتعود . فأتانى آت وأنا بين النوم واليقظة فقال : هل شعرت أنك حملت ؟ فكأنى أقول : ما أدرى. فقال : انك حملت بسيد هذه الأمة ونبيها . وذلك يوم الاثنين . فكان ذلك مما يقن عندى الحمل (١)

وودت لو طارت بالبشرى الى « عبد الله »

واستعادت شيئا من اشراقها ، وقد هوّن عليها مرارة الفراق أن أكثر أيامه قد تصرمت ، وأن كلّ يوم يدنيها من اللقاء المنتظر ، ويزيدها يقينا من الحادث السعيد الذى ترجو أن تلقى به زوجها فى اللحظة التى يؤوب فيها !

---

(١) شرح المواهب للزرقانى : ١٠٦/١

وقد اختلفت الروايات فى المكان الذى حملت فيه آمنة بسيد البشر ، ففى قول أنها حملت به فى شعب أبى طالب « نهاية الارب : ٦٤/١٦ » وفى قول آخر انها حملت به فى بيت آلها بنى زهرة « الاستيعاب لابن عبد البر : ١٦/١ »

وأهلّ الشـــهر الثانى أو مضت قطعـــة منه ، وآن للقافلة آن تعود ، فتهيأت « آمنة » للقاء وشيك ، وراحت تعـــد ما بقى من أيام وليـــال ، وتتمثل زوجها وقد عاد اليها متلهفـــا يحدثها عما لقى فى بعـــدها من حر الشـــوق ولوعة الحنين . ولكن هل تراها تستطيع أن تصبر فلا تفاجئه ببشراها ؟ أم هل تراها قادرة على أن تكتم عنه ما تراءى لها من أحـــلام اليقظة ورؤى المنام ، ريثما تستمتع بحديثه الشهى العذب ؟

بهذا شغلت « آمنـــة » فى الفترة التى سبقت عودة الغائب ، حتى اذا لاحت طلائع القافلة ، خفق قلبها فى عنف ، ووقفت فى ساحة الدار مما يلى البـــاب الخارجى ، تنتظر أن يفتح بين آونة وأخرى ، وتشرق منه طلعة الحبيب ..

وطال بها الانتظـــار حتى ســـاورتها شكوك مبهمة وخوف طارىء ، فتنبهت فجأة الى غيبة جاريتها « أم أيمن » وكانت قد ذهبت منذ شاع خبر قدوم المسافرين ، كى تعود فتبشر سيدتها على عجل بأنها رأت « عبد الله » رأى العين ، وتصف لها حاله بعد غيبة طالت !

وتناهى الى أذنيها ضجيج اللقاء فى الدور المتاخمة لدارها ، فأين عبد الله ؟ ما الذى أمسكه عنها فلم يخف اليها طائرا ؟

لعله لقى ـــ فى طوافه بالكعبة اثر عودته ـــ من احتجزه حينا ..

أو لعل أباه الشيخ آت فى صحبته ، فما يستطيع عبد الله الا أن يمشى على مهل ، احتراما لشيخوخة أبيه ..

أو لعل .. ولعل ...

رسول الى يثرب

وأخيرا ، أحست خطوات وانية تدنو من الدار ، فتعلقت عيناها بالباب وهى لا تكاد تتماسك من انفعـال ، حتى اذا فتح الباب بعد لحظة طالت كأنها دهر ، خذلتها قدماها ، فتسمرت حيث هى : واجمة خائفة !

لم يكن « عبد الله » هو القادم ، وانما جاء « عبد المطلب » الشيخ فى صحبة أبيها « وهب » ونفر من الأهـل الأدنين ، وقد غشيت وجوههم جميعا غاشية من القلق

وكانت « أم أيمن » تمشى فى أثرهم متخاذلة مطرقة ، تحاول أن تخفى دمعة أفلتت من مقلتيها ..

وقال « وهب » وهو يتحاشى النظر الى وجه ابنته :

ـ بعض الشجاعة يا آمنة ، فما فى الأمر ما يدعو الى مثل ذلك الجزع الأليم . لقد عادت القافلة وكنا فى انتظارها بالحرم ، فلما افتقدنا « عبد الله » أخبرنا رفاقه أن وعكة طارئة ألمت به وهو فى طريقه الينا ، وعما قريب يبرأ ويعود سالما اليك والى مكة وقريش ..

وانحلت عقدة ربطت لسان « عبد المطلب » فعقب قائلا :

ـ هو ذاك يا آمنـة .. وعكة بسيطة ولا شىء أكثر وقد قال الرفاق : «خلفناه بيثرب عند أخواله من بنى مخزوم» فبعثت اليه أخاه الحارث(١)، كى يكون معه ، ويصحبه فى طريقه الينا ، فثوبى الى صبرك وادعى له ...

قالت فى ضعف :

ـ أفعل ياعم !

وانصرفت من فورها الى الصـلاة والدعاء ، فلم تكد تشـعر بالقوم

---

(١) هذه رواية ابن اسحاق فى السيرة ، والذى فى النهاية لابن الاثير (٢/٣) أن الاخ الذى توجه الى يثرب كان الزبير لا الحارث

حولها ، حتى غادروها الى الكعبة خاشعين ضارعين ..

***

وأتم الشهر الثاني دورته ، و « آمنة » على حالها تجاهد ما استطاعت أن تذود عن قلبها اليأس ، فاذا عز عليها ذلك لاذت بالدعاء ، لعل الله يرد عليها ذاك الغائب الذى افتدى بالأمس أغلى فداء ..

وكانت تعاودها — فى لحظات نومها القصيرة — رؤيا ملحة ، عن جنين عظيم تطويه أحشاؤها ، وتسمع الهاتف يبشرها بأمجد بنوة ، فاذا آبت الى يقظتها ، شق عليها ألا تجد « عبـد الله » بجانبها ، تفضى اليه بالذى ترى وتسمع ...

غائب لا يثوب

ثم ..

عاد « الحارث بن عبد المطلب » وحده ..

عاد لينعى أخاه الشاب ، الى أبيه الشيخ ، وزوجه العروس ، والقرشيين جميعا ..

لقد غاله الموت وهو بين أخواله من بنى مخزوم ، اثر رحيل القافلة التى تخلف عنها ..

ودفن هناك ــ على أرجح الأقوال ــ ولم يقبل فيه هذه المرة أى فداء !

***

ووجمت « آمنة » للخبر ، وقست عيناها فما تسعفانها ببكاء ..

وأعفاها ذهولها من الانهيار والتصدع ، فلبثت أياما لا تكاد تصدق النعى ، حتى اذا تيقنت من الكارثة ، فاضت عبراتها ، وقيل انها رددت فى لوعه : (١)

عفا جانب البطحاء من زين هاشم
وجاور لحدا خارجا فى الغماغم

دعته المنايا دعوة فأجابها
وما تركت فى الناس مثل ابن هاشم

عشية راحوا يحملون سريره
تعاوره أصحابه فى التزاحم

فان تك غالته المنون وريبها
فقد كان معطاء كثير التراحم

ثم أمسكت لا تزيد ..

---

(١) السهيلى : ١/١٠٧ ــ والزرقانى : ١/٢١٠ ــ والنويرى : ١٦/٦٦

ووجد عليه « عبد المطلب » واخوته وأخواته وجدا شديدا (١)

ولبست « مكة » كلها ثوب الحداد على فتاها الذى غالته المنون غريبا ولما ينزع عنه ثوب العرس ، وضجت من النواح عليه حلوق بُحَّت من الهتاف له حين احتفلت بفدائه منذ شهرين وأيام ..

كانت سنه اذ ذاك ، ثمانية عشر عاما (٢) ، فيا للشباب الفتى النضير يهتصره الموت اثر فرحة الفداء !

ويا للعروس الشابة ، تترمل هكذا سراعا ، وما يزال فى يديها خضاب العرس !

---

(١) النويرى : ٦٦/١٦

(٢) هذا هو المشهور . ونقل ابن سعد فى طبقاته عن الواقدى أن سنه كانت يوم وفاته خمسا وعشرين سنة . وانتظر نهاية الارب : ٦٦/١٦ . والحاوى للفتاوى : ٢/٢٣٠

الكتاب الخامس

أم اليتيم

١ ــ الجنين
٢ ــ الوليد
٣ ــ الرضيع

الجـــنين

ما مضت فترة من الرسـل الا
بشرت قومهـــا بك الانبيـــاء
فهنيئـــا به لآمنـــة الفضــ
ـــل الذى شرفت به حـــواء
من لحـــواء انهـا حملت أحمـ
ـــد أو أنهـــا به نفســاء

(البوصيرى)

وفض المأتم ..

لكن القوم لم يفرغوا من صاحبه الثاوى فى لحده بعيدا بيثرب ..

كانوا فى حيرة من أمره :

ما دام الله قد كتب عليه الموت هكذا سريعا ، ففيم كان الفداء ؟

من كان يظن ، حين نحرت الابل المائة بالحرم ، وتركت لا يُصد عنها انسان ولا سبع ، أن المنايا واقفة بالمرصاد للذبيح المفتدى ، على قيد خطوات معدودات ؟

وفى مثل هذا ، كانت « آمنة » تفكر ، وهى فى وحدتها تجتر أحزانها ، وتكابد الذى تجد من لوعة المصاب ، حتى خيف عليها الهلاك فتتابع أهلها يحاولون أن يعزوها ، وهى تأبى أن تقبل فى « عبد الله » عزاء ..

وناشدوها الصبر الجميل ، فأنكرت على نفسها الصبر ، ووجدت فيه جحودا وغدرا بالحبيب الذى رحل

وأوجس « آل هاشم وزهرة » فى نفوسهم خيفـة ، أن تشتد وطـأة الحزن على « آمنة » فتذهب بها ، ولبثت « مكة » شهرا وبعض شهر ، وهى ترقب فى قلق ، الى أين تنتهى الاحزان بالارملة العروس ..

حتى كانت ليلة من ليالى شوال ، أحاط فيهـا العواد بفراش « آمنة »

وهى فى غمرة أحزانها لا تفتأ تسائل كل وافد ووافدة من أهلها :

ــ فيم كان فداؤه اذن ، ما دام الله قد كتب عليه الموت العاجل ؟

ــ فيم كان العرس الحافل ، ويد القدر تحفر له لحده بيثرب ؟

ثم أدركها الاعيــاء فأغفت مجهدة والعيون ترقبهــا فى حنــان وقلق وارتياب ، على أنها ما لبثت أن صحت من غفوتها وقالت لمن حولها :

« كأنى عرفت سر الذى كان : ان عبد الله لم يفتد من الذبح الا لمهمة عظمى ! لقد أمهله الله ريثما يودعنى هذا الجنين الذى أحسست به اللحظة يتقلب فى أحشائى ، والذى من أجله يجب أن أعيش ... »

ومن تلك اللحظة الحاسمة ، أنزل الله سكينته على « آمنة » فطوت أحزانها فى أعماقها ، وبدأت تفكر فى ابنها الذى يحيا بها ويحييها ..

***

ولا أستطيع أن أنتقل الى الحديث عن أمومة « آمنــة » قبل أن أقف لحظة لأشير الى اختلاف الروايات فى وفاة « عبد الله » :

هل كانت والابن جنين فى رحم أمه ؟

أو كانت بعد أن وضعته ؟

لا مراء فى أن الرسول يتيم ، وقد نزلت بهذا آية الضحى : « ألم يجدك يتيما فآوى » والمشهور ، أنه ــ صلى الله عليه وسلم ــ ولد يتيما ــ وقد اكتفى بهذا « ابن اسحاق » دون أن يشير الى أى خلاف فيه . قال :

« .. ثم لم يلبث عبد الله بن عبد المطلب ، أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن هلك وأم رسول الله صلى الله عليه وسلم حامل به »

ونقل « ابن هشام » عبارة ابن اسحاق هذه ، من غير أن يضيف اليها أو يعلق عليها بما يشعر أن القوم على عهده اختلفوا فى هذا ..

ونقل « ابن الأثير » فى (الكامل) أن « الزهرى » قال :

« أرسل عبد المطلب ابنه عبد الله الى المدينة يمتار لهم فمات بها ، وقيل بل كان فى الشام فأقبل فى عير قريش فنزل بالمدينة وهو مريض ، فتوفى

بها .. قبل أن يولد رسول الله صلى الله عليه وسلم »

كما نقل فى موضع آخر [١] أن « أبا طالب » قال للراهب « بحيرا » عندما سأله عن محمد : « انه ابن أخى ، مات أبوه وأمه حبلى به »

وفى نهاية الأرب [٢] : « فذهب أخوه الحارث الى يثرب فوجده قد توفى ودفن . .ورسول الله صلى الله عليه وسلم حمل »

لكن « السهيلى » نقل فى (الروض الأنف) : أن « أكثر العلماء أجمعوا على أن عبد الله مات والرسول فى المهد : قيل ابن شهرين ، وقيل أكثر من ذلك .. وقيل مات أبوه وهو ابن ثمان وعشرين شهرا » [٣]

ونقل ناشرو (السيرة) بالهامش عبارة « السهيلى » التى ذكرناها آنفا ، بلا محاولة لتحقيقها ..

وأشار « البرزنجى » الى الخلاف اشارة عابرة فقال :

« ولما تم لحمله شهران على مشهور الأقوال المروية ، توفى بالمدينة المنورة أبوه عبد الله ، وكان قد اجتاز بأخواله فى مرضه عائدا من الشام » [٤]

وعلق « عليش » على هذا فى شرحه للمولد ، فذكر من الأقوال المروية التى أشار اليها البرزنجى : أن أبا الرسول توفى وهو ابن سبعة أشهر ، وقيل ابن ثمانية وعشرين شهرا ..

***

وندع هؤلاء الى المحدثين ، فنجد عند أكثرهم اطمئنانا الى رواية من قالوا ان عبد الله توفى وابنه جنين . قال بودلى :

« وكان عبد الله بن عبد المطلب أحب أبنائه اليه ، وكان من المرجح أن يرث مركز أبيه وماله ، لكن الموت لم يمهله ، فقد خطفه فى يثرب وهو فى رحلة تجارية ، عقب زواجه من « آمنة » ولم يقدر له أن ينعم برؤية ابنه

---

(١) الكامل : ١٣/٢
(٢) للنويرى : ٦٦/٦
(٣) الروض الانف : ١٠٧/١ ـ وانظر نهاية الارب : ٦٦٦/١٦
(٤) المولد النبوى : ص ١٢

الذى رأى النور فى أغسطس سنة ٥٧٠ م ، بعد وفاته بشهور » (١)

و « فيليب حتى » يذكر موت عبد الله قبل مولد ابنه ، ثم لايشير الى خلاف فى ذلك (٢)

وتحدث « الدكتور هيكل » مطمئنا غير مرتاب ، عن سفر عبد الله الى الشام فى رحلته الأخيرة ، تاركا « آمنة » حاملا ، وقد تقدمت بها أشهر الحمل من بعده حتى وضعت فبعثت الى عبد المطلب عند الكعبة ، تخبره أنه ولد له غلام ..

غير أنا نجد عند بعض المفكرين المحدثين ــ أذكر منهم أستاذنا أمين الخولى ــ ميلا الى الرواية القائلة بأن محمدا ولد قبل أن يموت أبوه ، وهم لا يستندون فى ذلك الى دليل نقلى ، بقدر ما يستأنسون بما اطمأن اليه علم النفس الحديث من صلة الجنين بأمه ، وأثر حالتها المعنوية على كيانه كله : جسما وخلقا وأعصابا . وحياة « محمد » ــ صلى الله عليه وسلم ــ تشهد بسلامة بنائه وصحة أعصابه ، فلقد خاض معارك تكفى واحدة منها لامتحان أصلب الرجال عودا وأثبتهم جنانا وأجلدهم أعصابا ، فكان فيها جميعا البطل المظفر ، وهذا ــ عندهم ــ يرجح ، ان لم يثبت ، أن أمه لم تروع وهى حامل بموت زوجها ، بل أمضت أشهر الحمل آمنة مطمئنة هادئة ، لايئودها حزن ولا يمضها ثكل ولا يرهقها شجن ..

ولا نمارى فيما لهذا الرأى من قوة ووجاهة ، لكن يعوزه الدليل النقلى الذى نعده حاسما فيما نحن فيه ، فلقد رأينا أكثر الرواة الأول ، لايشيرون الى خلاف فى أنه صلى الله عليه وسلم ولد يتيما : « ألم يجدك يتيما فآوى » وهذا هو الذى حملنا على أن نلوذ بالفن لكى نحمل الرواية المشهورة أقصى ما تطيق احتماله من توفير الراحة النفسية للأم الحامل ، رغم حزنها الثقيل وثكلها المفجع ، فاطمأننا الى أن الجنين نفسه ، كان عاملا هاما فى عزائها ، وأن شعورها به يتقلب بين أحشائها ، قد آنس وحشتها

---

(١) الرسول : ص ٢٨ من الترجمة العربية

(٢) تاريخ العرب : ص ١٣٥ ط ثانية من الترجمة العربية

وهون عليها ما كانت تلقى من حزن لعله كان يكفى لأن يتلفها ، لو لم ينزل الله سكينته عليها ، ويملأ دنياها بهذا التراث الحى الغالى الذى أودعه عبد الله اياها قبل أن يموت ، فعاشت به وله ..

***

تسامعت بيوت « مكة » بالنبأ السعيد ، فتوافدت عقائل « قريش » على دار الفقيد ، يهنئن « آمنة » ويصغين الى ما سمعت من بشرى ..

وكثر الحديث عما ملأ الجزيرة من أقوال عن نبى منتظر تقارب زمانه ، يتحدث بها الأحبـــار من يهود ، والرهبان من النصارى ، والكهان من العرب (١)

ولعل العرب لم يلقوا بالا ـ أول الأمر ـ الى هذا الذى ذاع وانتشر، غير أنى أكاد أطمئن الى أن «آمنة» قد ألقت كل بالها الى تلك الذائعات ، فما نسيت قط أن زوجها هو الذى استأثر من دون شبان قريش ورجالها بمجد الفداء الذى لم يحدث منذ افتدى اسماعيل ..

وقد بقى فى مسمعها صدى قوى رنان ، مما ذكرته أخت ورقة بن نوفل وفاطمة بنت مر ـ وقد كانت فيما روى ابن الأثير كاهنة من خثعم ـ عن النور الذى انتقل من « عبد الله » اثر زواجـه ، والغرة التى ذهبت بها « بنت وهب » فلم تدع لغيرها من النساء فى « عبد الله » مأربا ..

ثم هى قبل هذا كله ، سيدة من صميم البيئة الرفيعة الحاكمة فى مكة ، ومن شأن نساء هذه البيئة ، أن يرنون الى بعيد ، وأن يرجون للأجنة فى بطونهن مجدا لم يسبق اليه أحد ..

***

وكثير من المؤرخين المسـلمين ، نقلوا عمن لا يتهمون من الرواة ، ما تراءى « لآمنة » فى أحلامها من بشرى بابن عظيم ، وان يكن « الدكتور هيكل » قد مر بهذا عابرا دون أن يشير اليه ، فقال :

---

(١) من شاء أن يقرأ تفصيل ذلك . فليقرأ الفصل الخاص بذكر المبشرات برســول الله ، فى الجزء السادس عشر من نهاية الارب ، ص ١٠٥ : ١٧٥ ٠ وفى الجزء الاول من السيرة لابن‌هشام

« وتقدمت بآمنة أشهر الحمل حتى وضعت كما تضع كل أنثى » (١)

وأكثر المستشرقين ، يأبون روايات البشرى اباء صريحا ، حتى «بودلى» وهو من أكثرهم انصافا واعجابا بالرسول ــ رفض أن يقبل الذى قيل فى رؤى « آمنة » عندما حملت بمن صار نبيا . قال فى كتابه (الرسول) :

« لا توجد أسرار تحيـط بمولد النبى ، اذا استثنينـا عدة خرافات لا يقبلها عقل : فما كان هناك بشائر على أنه المصطفى من الله ، ولا زارت الملائكة أمه قبل مولده ، ولا بشرتها بقدومه .. وانما حملته أمه ووضعته كما تحمل كل أنثى وتضع » (٢)

وانى ليدهشنى أن يصدر مثل هذا الحكم من رجل مثل « بودلى » أعرف فيه الاعتدال ونضوج الرأى . لقد قرر أن محمـدا « حملتـه أمه ووضعته كما تحمل كل أنثى وتضع » فما باله ينكر عليها ما يجوز على كل أنثى تحمل وتضع فى مثل ظروف « آمنة » ؟

لماذا يسمى ما روى عن أحلامها ورؤاها « خرافات لايقبلها عقل » ؟

أو ليس من حقها ــ ككل أنثى مثلها ــ أن تحلم للجنين الذى يتقلب فى أحشائها ، بمجد عريض ؟

لو أن « بودلى » استفتى علماء النفس ، لأنكروا عليه أن يسمى أحلام « آمنة » خرافات ! وانما الخرافة حقـا أن نجردها من بشريتها وأمانى أمومتها ، فما من أنثى تحمل ، الا حلمت لوليدها بأقصى ما تسمح به بيئتها وظروفها ، وقد كانت بيئة « آمنة » ما نعرف عزا وشرفا وعراقة وحسبا ، كما حفت بزوجها « عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم » ظروف فريدة لم شاركه فيها ســواه ، فأى عجب فى أن تبعد بآمنـة أحلامها فتسمع من يبشرها بأنها ستلد « سيد هذه الأمة » ؟

أو ليست أحق بهذا من « هند بنت عتبة » التى ردت على من بشرها بأن ابنها سيسود قومه قائلة : ثكلته أمه ان لم يسد الا قومه ؟ (٣)

---

(١) محمد : ص ٦٩

(٢) الرسول : ص ٢٥

(٣) راجع عيون الاخبار لابن قتيبة : ٢٢٤/١

اننا لا نقول لبودلى وأمثاله : ان « آمنة » فى هذا كله ، هى هى حواء فى كل زمان ومكان ، ولا نرغمهم على تصديق ما ذكره رواة العرب من أن « ليلى بنت مهلهل » هتف بها الهاتف حين حملت بابنها « عمرو بن كلثوم » :

يا لكِ ليلى من ولدْ
يَقدمُ اِقدام الأسد
من جشم فيه العدد
أقول قولا ، لا فند

فلما استكمل وليدها سنة أتاها ذلك الهاتف ليلا فقال :

انى زعيم لكِ « أمَّ عمرو »
بماجد الجد كريم النجر
أشجع من ذى لبد هزبر
يسودهم فى خمسة وعشر

قالوا : فساد قومه ولم يجاوز خمس عشرة سنة ..

وكذلك رووا أن « عتبة بنت عفيف » أتاها الهاتف حين حملت بابنها « حاتم الطائى » فسألها :

ـ أغلام سمح يقال له حاتم أحب اليك ، أم عشرة غلمة كالناس .. ؟

فأجابت : بل حاتم !

و « خبيئة بنت رباح الغنوية » ، حدثوا أن هاتفا هتف بها فى منامها ذات ليلة :

ـ أعشرة هدرة ـ جمع هادر وهو الساقط ـ أحب اليك أم ثلاثة كالعشرة ؟

وعاودها ثانية ، فقصت رؤياها على زوجها فقال لها :

ـ ان عاد الثالثة فقولى : ثلاثة كعشرة

ففعلت ، وولدت : خالدا ، ومالكا ، وربيعة ، وعُدّت بهم احدى

بل لا نقول كذلك ، لمن أنكروا على « بنت وهب » أحلامها : ان الحوامل قبلها وبعدها ، والى يوم تنتهى الحياة على هذه الأرض ، قد عرفن ويعرفن الهواتف والأحلام ..

وانما حسبنا أن نقول لبودلى :

ــ انك قد اتخذت من كتاب السيرة والمؤرخين الاسلاميين الأول ، مرجعك فى كتابك عن « الرسول » ، وزدت فاعتمدت أقوال العرب الذين عاشوا ويعيشون اليوم فى الجزيرة حيث عاش الرسول ، وكانت حجتك : « أنهم لا يتحدثون عن محمد كما يتحدثون عن شخص غامض بعيد أبدا ، لقد كان راعيا ، ارتدى نفس الثياب التى يلبسونها ، وامتطى ابلا كما يفعلون ، وكان التمر الذى عاش عليه يشابه تمرهم . انهم ليشاركونه فى كل ما فعله فهو بالنسبة لهم حى كفرد منهم ..

« لذلك كانت استعادة ذلك المشهد الذى مر عليه ثلاثة عشر قرنا بالنسبة لى ، أيسر من وصف جامعى فى أكسفورد ، الحياة فى عصر اليزابيث ، وأبسط من كتابة مؤرخ أمريكى عن الولايات المتحدة قبل حرب الاستقلال ..

« عاش أناس كثيرون من أصحاب محمد بعده ، فرووا ذكرياتهم عنه لذرياتهم ..

« انى أعرف العرب عن كثب ، وانى أحبهم ، وقد عشت فى خيامهم وأحببتها . وأظن أنى أستطيع أن أفكر كما يفكر محمد ، وأحس كما يحس ، وأفهم على التحقيق مشكلاته »

فما بالك بعد هذا تنكر اجماع كتاب السيرة على ما رأت « آمنة » من بشائر بمولد ذاك الذى كانت الجزيرة ملأى بالارهاصات عن قرب مولده ؟

الحق انى لا أستطيع أن أنكر من ذلك كله شيئا ، فمبلغ الأمر فيه أنه حالة تعرفها كل أنثى من البشر عانت تجربة الحمل ، واشتهت أن يبلغ

ولدها من المجد ما يسبق به قرناءه ورفاقه ، وانما يختلف مدى الطموح ومجال الأحــلام ، على قــدر ما تسعف عليه ظروف كل أم ، وتحتمــله امكانياتها ، ويمتد اليه بصرها !

وهذه « آمنة » بنت سيد بنى زهرة ، ولدت فى « أم القرى » وفى جوار البيت العتيق ، تلك البيئة التى عرفناها ، بكل حرمتها الدينية ، وكل ما لها من تراث عريق ، يحف به السنى والجلال ، تزوجها « عبد الله بن عبد المطلب » اثر افتدائه من النحر على نحو يذكر بجده الأعلى اسماعيل ، تزوجها وهى يومئذ ــ كما يقول ابن اسحاق ، شــيخ كتاب السيرة ــ أفضل امرأة فى قريش نسبا وموضعا ..

وسمعت « آمنة » ما سمعت من تعرض النساء لزوجها ثم صدّهن عنه لما تزوج بها ، وليكن ذلك ــ فى أدنى حالاته ــ وهمــا أو تخيلا ، أفلا يؤثر فيها ذاك الوهم حين تحمل جنينها الأول : حفيــد المنافين ، وسليل البيت الهاشمى وآل زهرة ؟

أفكثير على مثلها أن تحلم ، وأن ترجو لوليدها المنتظر أقصى ما يرنو اليه خيالها ، ويمتد اليها أملها ، وأن ترى حين حملت به كأنما خرج منها نور ، على ما تواترت (١) به الأنباء الصحيحة ، كنص عبارة ابن اسحاق ؟

***

والآن فلنعد الى « آمنة » حيث تركناها فى دارها بعد أن غاب عنهــا « عبد الله » الى غير مآب ، وخلفها فى حزن مستبد ، لم تخفف حدته الا حركة الجنين فى أحشائها ..

حتى اذا أوشك أن يتم أجله ، جاءها « عبــد المطلب » ذات أصيل ، يطلب اليهــا أن تتهيــأ للخروج من مكة مع قريش ، حيث رأى لهم أن يتحرزوا فى شعف الجبال والشعاب ، تخوفا من معرة الجيش الذى جاء به « أبرهة الحبشى » من اليمن ..

وكانت « آمنة » قد سمعت بقــدوم « أبرهة » هذا فى جيش لجب ،

---

(١) السيرة : ١٦٦/١ ، وانظر نهاية الارب : ٦٤/١٦

لكنها لم تقدر أن الأمر قد بلغ من الخطر حدا يدفع قريشا الى الخروج من بلدهم الأمين ..

وسألت « آمنة » عبد المطلب :

ـ علمتُ ياعم أن قريشا وكنانة وهذيلا ومن بالحرم من سائر الناس ، قد أجمعوا على قتـال الطاغية ، فما الذى جَدَّ فى الموقف حتى يتركوا الكعبة لا يقاتلون عنها ؟

أجاب :

ـ عرفوا ألا طاقة لهم به ، فكرهوا معركة غير متكافئة ، تذوب فيها قريش أمام العدو ، ثم تؤوب بعار الهزيمة ..

وسكتت « آمنة » برهة ، ثم تذكرت ما سمعت عن لقاء كان بين أمير مكة وطاغية الأحباش ، فعادت تسأل عما تم فى ذاك اللقاء ..

فأجابها الأمير الشيخ :

« أجل كان بيننا لقاء ، سعى اليه أبرهة قبل أن أسعى اليه . ذلك أنه حين بلغ مشارف مكة ، بعث « حناطة الحميرى » وقال له : (١)

ـ سل عن سيد أهل هـذا البلد وشريفها ، ثم قل له ان الملك يقول لك : انى لم آت لحربكم ، انما جئت لهدم هذا البيت ، فان لم تعرضوا دونه بحرب فلا حاجة لى بدمائكم . فان هو لم يرد حربى فائتنى به

وجاءنى « حناطة » فأبلغنى رسالة « أبرهة » وتلقى جوابى :

« والله ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة ، هـذا بيت الله الحرام ، وبيت خليله ابراهيم عليه السلام ، فان يمنعه فهو بيته وحرمه ، وان يُخلِ بينه وبين أبرهة ، فوالله ما عندنا دفع عنه »

قال حناطة :

ـ فانطلقْ معى ، فانه قد أمرنى أن آتيه بك ..

ففعلت ، ومعى بعض أبنائى ، وهناك مضى بى الى أبرهة أحد رجاله

---

(١) ابن هشام : السيرة ١/٥٠

فقال له : (١)

« أيها الملك ، هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك ، وهو صاحب عير مكة ، وهو يطعم الناس فى السهل ، والوحوش فى رءوس الجبال »

فأكرمنى « أبرهة » عن أن أجلس دونه ، وكأنما كره فى الوقت نفسه أن تراه الحبشة معى على سرير ملكه ، فنزل عن سريره وجلس على بساطه وأجلسنى الى جانبه ثم قال لترجمانه :

ـ قل له ما حاجتك ؟

فلما أجبت : حاجتى أن يرد علىّ الملكُ مائتى بعير أصابها لى ..

بدا على الملك كأنما صغرت فى عينيه ، وخيبت ظنه فىّ ، وقال لترجمانه فى جفوة :

ـ قل له : قد كنت أعجبتنى حين رأيتك ، ثم قد زهدت فيك حين كلمتنى . أتكلفنى فى مائتى بعير أصبتها لك ، وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك لا تكلمنى فيه ؟ (٢)

قلت على الفور :

ـ انى أنا رب الابل ، وان للبيت ربا يحميه .. (٣)

قال الفاجر مُدلاً بقوته :

ـ ما كان ليمتنع منى !

فأجبته متحديا :

ـ أنت وذاك ..

وكان معى سيد هذيل ، فعرض على « أبرهة » ثلث أموال « تهامة » على أن يرجع ولا يهدم البيت ، فأبى متكبرا واكتفى بأن أمر برد ابلى الىّ..

وانصرفنا ، فحدثتُ قريشا بالخبر ، وأمرتهم بالخروج من مكة ، ثم

---

(١) ابن هشام : السيرة ٥١/١

(٢) ابن هشام : السيرة ٥١/١
وانظر تاريخ الطبرى : ص ٩٤٠ من القسم الاول ط أوربا

(٣) ابن هشام : السيرة ٥١/١
وانظر تاريخ الطبرى : ص ٩٤٠ من القسم

فمت فأخذت بحلقة باب الكعبة ، وقام معى نفر من « قريش » يدعون الله ، ويستنصرونه على « أبرهة » وجنده ..

***

وأطرق « عبد المطلب » لحظة ، ثم رفع رأسه الى السماء وردد فى ضراعة أبياته التى قالها وهو آخذ بحلقة باب الكعبة :

لاهُمَّ ان العبد يمنع رحله فامنع حلالكْ
جرّوا جموع بلادهم ، والفيلَ ، كى يسبوا عيالك
ان كنت تاركهم وكعبتنا (١) ، فأمرٌ ما بدا لك ؟

يا رب لا أرجو لهم سواكا
يا رب فامنـع منهم حماكا
ان عدو البيت من عاداكا
امنعهمو أن يخربوا فنـاكا

فردّدتْ « آمنة » من بعده :

يا رب لا أرجو لهم سواكا

ثم ودعها الشـيخ وخرج ، على أن يبعث اليها فى غد من يصحبها فى خروجها لتلحق بالجمع الراحل ...

وخلت « آمنـة » الى نفسـها والى الجنين الغالى الذى تطوى عليه أحشاءها ، فعز عليها أن تلده بعيدا عن البلد الحرام ، وفى غير دار أبيـه « عبد الله »

وكان هذا الخاطر بحيث يقلق مضجعها ويسهر ليلتها ، لكنها أوت الى فراشها وما يتخلى عنها ايمانهـا بأن الله مانع بيتـه ، ومتى كان للطاغين والجبابرة على البلد الحرام سبيل ؟

ونامت مطمئنة ، حتى انبلج الصبح وقد قر عزمها على ألا تبرح مكانها

---

(١) رواه الواقدى : ان كنت تاركهم وقبلتنا فأمر ما بدالك

من جوار الحرم ، الى أن يقضى الله أمره ..

وارتفعت شمس الضحى دون أن يأتى من قومها أحد ، ثم مضى النهار الا أقله وهى فى عجب : كيف لم يبعث عبد المطلب رسـوله اليها ؟ وفيم هذا الصمت المريب الذى يخيم على أحياء مكة كأنما قد أمسك كل حى فيها أنفاسه ؟

بل فيم ذلك الضجيج البعيد ، يتناهى اليها من أقصى الجنوب ، غامضا مختلطا مبهما لا تكاد تميزه : أهتاف هو ودعاء ، أم صراخ وعويل ؟

ألا ان وراء ذلك كله لأمرا ..

***

وأقامت « آمنـة » تترقب ، حتى اذا آذنت الشمس بمغيب ، جاءتها الرسل من قومها تسعى ، لا لتطلب اليهـا أن تخرج الى شعف الجبال ، ولكن لتبشرها بالنجاة ...

ولم يبق فى « مكة » بعدئذ من لم يعرف الخبر :

حدثوا أن « أبرهة » كان قد تهيأ لدخول البلد الحرام (١) ، وهيأ فيله وعبى جيشه مجمعا لهدم البيت العتيق ، ثم الانصراف الى اليمن ، فلمـا وجهوا الفيل من معسكره فى ظاهر البلدة من ناحية الجنوب ، برك وأبى أن يتحرك . فضربوه فى رأسه بآلة من حديد ، ثم أدخلوا محاجن لهم فى أسفل بطنه ، وهو بارك لايقوم ، فوجهوه راجعا الى اليمن فقام يهرول ، ووجهوه نحو الشام ففعل مثل ذلك ، ووجهوه الى المشرق فتهيأ للانطلاق ، ولما عادوا يوجهونه نحو مكة برك !

ثم حدثت المعجزة : سلط الله نقمته على أصحاب الفيل ، فانتشر فيهم فجأة وباء مهلك ، رمتهم بجراثيمه طير أبابيل ، فجعلتهم كعصف مأكول ..

هنالك أدركهم الذعر ، فولوا مدبرين يتدرون الطريق الذى جاءوا ، ويسألون عن « نفيل بن حبيب الخثعمى » ـــ وكان قد خرج لقتالهم حين

---

(١) ارجع الى السيرة ، ج ١ ص ٥٤ ط الحلبى

مروا بأرض خثعم ، فلما أسره أبرهة ، افتدى نفسه بأن يكون دليل الحبشان بأرض العرب ـ فلا يكاد « نفيل » يسمع صياحهم وضراعتهم اليه أن يدلهم على الطريق الى اليمن ، حتى يرد بأعلى صوته : (١)

أين المفرُّ والإِلهُ الطالبُ ؟
والأشرم المغلوبُ ليس الغالب !

أو يقول :

وكل القوم يسأل عن « نفيل »
كأن عليَّ للحبشان دينا ! (٢)

قيل : « فخرجوا يتساقطون بكل طريق ، ويهلكون بكل مهلك على كل منهل ، وأبرهة معهم ينتثر جسمه وتسقط أنامله أنملة أنملة ! » (٣)

ولم تكن أرض العرب قد شهدت ـ فيما روى ابن اسحاق عن يعقوب ابن عتبة ـ الحصبة والجدرى قبل ذاك العام المشهود ..

وأقبلت « قريش » على كعبتها المقدسة تطيف بها حامدة شاكرة ، وتجاوبت أرجاء البلد الأمين بدعوات المصلين وأناشيد الشعراء :

فتنكلوا عن بطن مكة انها
كانت قديما لا يرام حريمُها
سائلْ أمير الجيش عنها ما رأى
ولسوف ينبى الجاهلين عليمُها
ستون ألفا لم يئوبوا أرضَهم
بل لم يعش بعد الاياب سقيمها

***

وبلغت الأصداء مسمع « آمنة » فقامت تصلى وقد أشرق وجهها بنور اليقين والايمان ، وأحست غبطة غامرة ، أن استجاب الله لدعائها فلم يكتب لولدها ـ ابن عبد الله ـ أن يولد بعيدا عن البلد الحرام

---

(١) السيرة : ٥٥/١
(٢) من قصيدة لنفيل ، روى ابن اسحاق منها ستة أبيات
(٣) السيرة : ٥١/١

الوليـــد

ولد الهدى فالكائنـــات ضـيـاء
وفـم الزمان تبسـم وثنـاء
الروح والمــلأ الملائك حـوله
للدين والدنيــا به بشــراء
والعرش يزهو والحظـيرة تزدهى
والمنتهى ، والسـدرة العصماء

(شوقى)

ثم لم تك الا فترة قصيرة المدى بعد يوم الفيــل ، حتى ذاعت بشرى المولد . حدد قوم هذه الفترة بخمسين يوما وهو الأكثر والأشهر ، على ما نقل « السهيلى » فى الروض الأنف (١)

وعن « ابن عباس » أن المولد كان يوم الفيــل ، واكتفى آخرون بأن ذكروا أنه كان فى عام الفيل (٢)

وكانت الرؤى قد عاودت «آمنة» فى صدر ليلة مقمرة من ليالى ربيع ، وسمعت من يهتف بها من جديد ، أنها توشك أن تضع سيد هذه الأمة ، ويأمرها أن تقول حين تضعه :

« أعيذه بالواحد ، من شر كل حاسد » ثم تسميه محمدا ..

وجاءها المخاض فى أوان السحر من ليلة الاثنين ، وهى وحيدة فى منزلها ليس معها أحد سوى جاريتها ـ وقيل فى رواية أخرى أن « أم عثمان بن أبى العاص » كانت كذلك معها ـ فأحست بما يشبه الخوف ، لكنها ما لبثت أن شعرت بنور يغمر دنياها ، ثم بدا لها كأن جمعا من النساء يحطن بمضجعها ويحنون عليها ، فحسبتهن من بنات عبد مناف ، وعجبت كيف علمن بأمرها وما أخبرت به من أحد ، غير أنهـا أدركت على الفور أن

---

(١) وانظر الزرقانى ١/١٣٠ ـ والنويرى : ١٦/٦٨
(٢) السيرة ١/١٦٧

هؤلاء اللواتى حسبتهن من نساء البيت الهاشمى ، لسن سوى أطيـاف سارية ! وخيـل اليها أن من بينهن « مريم ابنة عمران ، وآسـية امرأة فرعون ، وهاجر أم اسماعيل » !

وزايلها كل ما كانت تحسه من خوف ، فتجلدت للحظة الحاسمة ، وما كاد نور الفجر ينبثق ، حتى كادت قد وضعت وليدها كما تضع كل أنثى !

***

وتوارت الأطياف النورانية السارية ، حين لم تعد « آمنة » وحدها ! كان ولدها الى جانبهـا يملأ الدنيا حولهـا نورا وأنسا وجمالا ، ومضت ساعة وبعض ساعة ، وهى لا تفتأ ترنو الى طلعتـه البهية وكيانه اللطيف المشرق ، وتذكر به الحبيب الذى أودعها اياه ، ثم رحل ..

حتى اذا انبلج الصـبح ، كان أول ما فعلته الوالدة أن أرسلت الى « عبد المطلب » تبشّره بمولد حفيده ، فأقبل مسرعا ، وانحنى فى حنو على الوليد ، يملأ منه عينيه ، وقـد ألقى كل سمعه الى « آمنة » وهى تحدثه عما رأت وسمعت حين الوضع ..

ووعى كل ما قالت ، ثم حمل صغيره العزيز بين ذراعيه فى رفق ورقة ، وانطلق خارجا حتى أتى الكعبة فقام يدعو الله ويشكر له أن وهبه ولدا من ابنه الفقيد الغالى

وأحاط به بنوه فى خشوع وغبطة ، وهو يطوف بالكعبة منشدا : (١)

الحمـد لله الذى أعطـانى
هذا الغـلام الطيب الأردان
قد ساد فى المهد على الغلمـان
أعيـذه بالبيت ذى الأركان
حتى أراه بالـغ البنيـان
أعيـذه من شر ذى شنآن
من حاسد مضطرب العنان

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد . رواية عن الواقدى ، وانظر النويرى : ٧١/١٦

ثم رده الى أمه ، وعاد لينحر الذبائح ويطعم أهل الحرم وسباع الطير ووحش الفلاة

وكانت مكة ــ حين ذاعت فيها بشرى المولد ــ ما تزال تحتفل بما أتاح الله لها من نصر على أصحاب الفيل ، فرأى القوم فى مولد «محمد» حينذاك ، آية تذكر بأخرى ، يوم اختير أبوه للنحر ، ثم افتُدِى بالابل المائة ..

وبلغ من غبطة البيت الهاشمى بالمولود العزيز ، أن « ثويبة الاسلمية : جارية أبى لهب بن عبد المطلب » لم تكد توافى سيدها ببشرى المولد ، حتى أعتقها ، ولو قدكشف له الحجاب عن الغد المغيب ، لروعته رؤية دوره فى الحرب الدامية التى قدر لقريش أن تصلاها بعد أربعين عاما ، عندما جاء وليدها ذاك الهاشمى اليتيم ، برسالة السماء ..

فيقال ان « العباس بن عبد المطلب » رأى أخاه « أبا لهب » بعد موته بسنة ، فسأله عن حاله ، فأجاب أبو لهب : فى النار ، الا أن العذاب خُفِّف عنى كل ليلة اثنين ، بماء أمُصُّه من بين اصبعىَّ هاتين ، وذلك أنى أعتقت « ثويبةَ » حين بشرتنى بولادة النبى صلى الله عليه وسلم .

و « أبو لهب » هذا ، هو الذى نزل فيه قوله تعالى ، « تبَّت يدا أبى لهب وتبَّ ، ما أغنى عنه مالُه وما كسب ــ سيصلَى ناراً ذاتَ لهب ــ وامرأتُه حمالة الحطب ــ فى جيدِها حبلٌ من مَسَد » ..

***

ولن يمضى وقت طويل ، حتى تمتلىء الجزيرة بأخبار ومرويات عن تلك اللحظة المباركة التى وضعت فيها « آمنة » ولدها . وتظل تلك المرويات تتناقل عبر الأجيال حتى تصل الينا ، وقد أضافت اليها الليالى والأيام جديدا من اضافات السمار ورؤى المحبين ..

وهذا زماننا يصغى فى ذكرى تلك الليلة المباركة من كل عام ، الى ملايين الأصوات فى شتى المحافل بمختلف بقاع الأرض ، ترتل قصة المولد وتترنم بما ظهر عند ولادة محمد من خوارق وغرائب ، اذ :

« زيدت السماء حفظا ، وردَّت عنها المردةُ وذوو النفوس الشيطانية ، ورُجمت الجنُّ وتدلّت اليه صلى الله عليه وسلم الأنجمُ الزهرية ، واستنارت بنورِها وهادُ الحَرم وربُاه . وخرج معه صلى الله عليه وسلم نورٌ أضاء قصورَ الشام القيصرية ، فرآها من بطاحِ مكةَ دارِه ومغناه . وانصدع الايوان بالمدائن الكسروية ، الذى رفع أنو شروانَ سَمْكة وسَوَّاه . وسقطت أربعٌ وعشرٌ من شُرفاته العلوية ، وكُسِر سريرُ الملِك كسرى لهولِ ما أصابه وعَرَاه . وخَمَدت النيرانُ المعبودةُ بالمَمالك الفارسية ، لطلوع بدرِه المنير ومُحَيَّاه .. » .

ويهتف أمير الشعر العربى بعد نحو ثلاثة عشر قرنا ونصف قرن من الليلة الغراء :

بكَ بشَّر الله السماءَ فزينت
وتضوعت مسكاً بكَ الغبراءُ
يومٌ يَتيهُ على الزمان صباحُه
ومساؤه بمحمد وضَّاء
ذُعِرتْ عروشُ الظالمين فزلزلت
وعلَتْ على تيجانهم أصداء
والنارُ خاويةُ الجوانبِ حولَهم
خمدت ذوائبُها وغاض الماء
والآيُ تترى ، والخوارقُ جمَّةٌ
« جبريلُ » روَّاح بها غَدَّاء !

***

وفى ضجيج الاحتفال بمولد « ابن عبد الله » ، لم تنس « قريش » أن تسأل شيخها « عبد المطلب » : لِمَ عَدَل عن أسماءِ آبائه وسمَّى حفيده محمدا ؟

ذلك أن الاسم لم يكن ذائعا بين القوم ، ويقول « السهيلى » (١) :

(١) الروض الانف : ١٠٦/١

« لا يُعرف فى العرب مَنْ تسمى بهذا الاسم قبله صلى الله عليه وسلم الا ثلاثة ، طمع آباؤهم ــ حين سمعوا بذكر محمد صلى الله عليه وسلم ، وبقرب زمانه ، وأنه يبعث فى الحجاز ــ أن يكون ولدا لهم .. وهم : محمد ابن سفيان بن مجاشع ، جد الفرزدق الشاعر ــ ومحمد بن أحيحة بن الجلاح .. ومحمد بن حمران بن ربيعة . وكان آباء هؤلاء الثلاثة قد وفدوا على بعض الملوك ، وكان عنده عِلم من الكتاب الأول ، فأخبرهم بمبعث النبى صلى الله عليه وسلم وباسمه ، وكان كلٌّ واحد منهم قد خلف امرأته حاملا ، فنذر ان وُلِد له ذَكَرٌ أن يسميه محمدا .. »

ونقل البغدادى عن القاضى عياض : (١)

« وأما محمد ، فان الله تعالى حمى أن يسمى به أحد من العرب ، ولا من عيرهم ، الى أن شاع قبل وجوده وميلاده صلى الله عليه وسلم أن نبيا يبعث اسمه محمد ، قد قرب ابان مولده ، فسمَّى قومٌ من العرب أبناءهم محمدا »

وقال أبو جعفر ، محمد بن حبيب (٢) : وهم ســتة لا سابع لهم : محمد بن سفيان بن مجاشع جد الفرزدق الشاعر ، ومحمد بن أحيحة بن الجلاح الأوسى ، ومحمد بن حسان الجعفى ، ومحمد بن مسلمة الانصارى ــ ولد بعد الرسول وقبل المبعث ــ ومحمد بن براء البكرى ، ومحمد بن خزاعى السلمى »

***

سألت « قريش » شيخها عن اسم حفيده ، فأجاب : أردت أن يكون محمودا فى الأرض وفى السماء ..

ويعلق « بودلى » على تلك الاجابة قائلا : « .. وأيا كان السبب ، فقد أصبح اسمُ الطفل محمدا ، وتسمَّى به ملايين الأطفال الذين وُلدوا بعد الدين الجديد الذى قدر لابن « آمنة » من عبــد الله ، أن ينشره على العالمين .. »

---

(١) النويرى : ٧٦/١٦

(٢) خزانة الادب : ٢٤/٢

الرضيع

« ... فما منا امرأة الا وقد عرض عليها محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتأباه اذا قيل لهـا انه يتيم ، وذلك أنا انما كنا نرجو المعروف من أبى الصبى ، فكنا نقول : يتيم ؟ ! وما عسى تصنع أمه وجده ؟

« فما بقيت امرأة قدمت معى الا أخذت رضيعا غيرى ، فلما أجمعنا على الانطلاق ، قلت لصاحبى : والله انى لاكره أن أرجع من بين صواحبى ولم آخذ رضيعا ، والله لاذهبن الى ذلك اليتيم فلآخذنه

قال : لا عليك أن تفعلى ، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة ... »

(حليمة السعدية)

أحست « آمنة » بعد أن وضعت ولدها الوحيد ، أن الشطر الأهم من رسالتها قد انتهى بمولد ابنها الموعود بأمجد غد ، كما انتهت رسالة « عبد الله » منذ أن أودعه جنينا فى أحشائها ، فأسلمت نفسها من جديد لأشجان الذكرى ، الى حد أثّر فى صحتها ، وان لم يُفض بها الى التلف أو قريب منه ، ذلك أن جزءا من تلك الرسالة لم ينته بعد ، فما يزال عليها أن ترعى ولدها حتى يدرك ، فتحدثه عن أبيه ، ثم تصحبه الى يثرب ، حيث يزوران قبر فقيدهما الغالى ..

***

وأقبلت الأمُّ على صغيرها ترضعه ريثما تفد المراضعُ من البادية فيذهبن به مع لداته من رضعاء قريش ، بعيدا عن جو مكة الخانق ، لكنّ لبن « آمنة » جفّ بعد أيام . ويعلل « بودلى » ذلك بأنه أثر" لما أصابها من حزنٍ لموت زوجها ، فدفعت به الى « ثويبة » جارية عمه « أبى لهب » ، وكانت قد أرضعت قبله عمه « حمزة بن عبد المطلب » بلبن ابنها

مسروح (١)

ثم لم تمض الا أيام معدودات ، حتى وفدت المراضع من بنى سعد بن بكر ، يعرضن خدماتهن على نساء الطبقة الموسرة من قريش ، فعرض عليهن « محمد بن عبد الله » فزهدهن فيه يتمه ، وأنه لم يك ذا ثراء عريض يكافىء نسبه الشريف ، فلقد مات « عبد الله » فى حياة أبيه « عبد المطلب » فلم يرث عنه مالا ، وأعجلته منيته فى مقتبل العمر قبل أن يتأثل لنفسه غنى ، ومن ثم لم يترك لولده الذى خرج الى الدنيا بعد موته ، سوى أمه ، وجاريته الحبشية «بركة أم أيمن» ، وخمسة أجمال أوراك ــ يعنى تأكل الأراك ــ وقطعة غنم (٢) ، وانها ــ كما يقول الدكتور هيكل ــ لثروة" ضئيلة لحفيد أمير مكة ، وسليلِ البيت الهاشمى القرشى العريق .

وأرهق الحزنُ « آمنة » ، وهى ترى المراضع يوشكن أن يعدن الى البادية ، زاهدات فى ولدها الشريف اليتيم ، مؤثرات عليه أطفالَ الأحياء ممن يُرجى منهم الخير الوافر .

وكاد اليأس من اقبال مرضعة على اليتيم ، يغزو قلب أمه العامر بأشجانه ، لولا أن عادت احدى المرضعات تلتمس « محمدا » بعد أن انصرفت عنه أول النهار . تلك كانت « حليمة بنت أبى ذؤيب السعدى » زوجة « الحارث ابن عبد العزى : أحد بنى سعد بن بكر بن هوازن » .

وكان لهما من الولد ، الذين شرفوا بأخوة محمد من الرضاعة : عبد الله ، وأنيسة ، والشيماء التى كانت تحضن الرضيع الهاشمى مع أمها (٣) ..

***

ولندع « حليمة » تروى قصتها مع الرضيع اليتيم ، أو يرويها عنها « ابن اسحق » شيخ كتاب السيرة ، نقلا عمن سمع « عبد الله بن جعفر بن أبى طالب » يقول :

---

(١) السيرة الحلبية : ٨٥/١
(٢) رواه ابن سعد عن الواقدى ، ونقله النويرى : ٦٧/١٦
(٣) الزرقانى : ١٤٦/١ ــ والنويرى : ٨١/١٦

« كانت حليمة بنت أبى ذؤيب السعدية ، أم رسول الله صلى الله عليه وسلم التى أرضعته ، تحدّث أنها خرجت من بلدها مع زوجها وابن لها صغير ترضعه ، فى نسوة من بنى سعد بن بكر ، تلتمس الرضعاء . قالت : وذلك فى سنة شهباء لم تبق لنا شيئا ، فخرجتُ على أتان لى قمراء — أى عجفاء — معنا شارف لنا — أى ناقة مسنة — والله ما تبضُ بقطرة ، وما ننام ليلتنا أجمعَ من صبيّنا الذى معنا ، من بكائه من الجوع ، وما فى ثدييَّ ما يغنيه ، وما فى شارفنا ما يغذيه . ولكنا كنا نرجو الغيثَ والفرج ، فخرجتُ على أتانى تلك .. حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء ، فما منا امرأة الا وقد عُرض عليها محمد — رسول الله صلى الله عليه وسلم — فتأباه اذا قيل لها انه يتيم . وذلك أنّا انما كنا نرجو المعروف من أبى الصبى فكنا نقول : يتيم ؟ ! وما عسى أن تصنع أمه وجدّه ؟

« فما بقيت امرأة قدمت معى الا أخذت رضيعا ، غيرى ، فلما أجمعنا على الانطلاق قلتُ لصاحبى : والله انى لأكره أن أرجع من بين صواحبى ولم آخذ رضيعا . والله لأذهبن الى ذلك اليتيم فلآخذنه ..

« قال : لا عليك أن تفعلى ، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة ..

« فذهبتُ اليه فأخذته ، وما حملنى على أخذه الا أنى لم أجد غيره . فلما أخذته رجعتُ به الى رحلى ، فلما وضعته فى حجرى أقبل عليه ثدياى بما شاء من لبن ، فشرب حتى روِى ، وشرب معه أخوه حتى روى ، ثم ناما ، وما كنا ننام معه قبل ذلك . وقام زوجى الى شارفنا تلك فاذا هى حافل ، فحلب منها ما شرب ، وشربتُ معه حتى انتهينا ريًّا وشبعا ، فبتنا بخير ليلة ..

« يقول صاحبى حين أصبحنا : تعلّمى والله يا حليمة لقد أخذتِ نسمة مباركة !

« فقلت : والله انى لأرجو ذلك ..

« ثم خرجنا وركبتُ أتانى وحملت محمدا عليها معى ، فوالله لقطعتْ

بالركب ما يقدر عليها شيء من حُمُرهم ، حتى ان صواحبى ليقلن لى :
« يا ابنة أبى ذؤيب ، ويحك ! اربَعى علينا ، أليست هذه أتانَكِ التى كنتِ خرجت عليها ؟
« فأقول لهن : بلى والله انها لهى هى !
« فيقلن : والله ان لها لشأنا ...
« ثم قدمنا منازلنا من بلاد بنى سعد ، وما أعلم أرضا من أرض الله أجدبَ منها ، فكانت غنمى تروح علىَّ ، حين قدمنا به معنا ، شباعاً لبناً ، فنحلب ونشرب ، وما يحلب انسان غيرنا .. قطرة لبن ، ولا يجدها فى ضرع ، حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم :
« ويلكم ، اسرحوا حيث يسرح راعى بنت أبى ذؤيب !
« فتروح أغنامهم جياعا ما تبضُّ بقطرةِ لبن ، وتروح غنمى شباعا لبنـــا . فلم نزل نتعرفُ من الله الزيادةَ والخيرَ حتى مضت ســنتاه وفصلته »

***

هكذا نما الرضيع وترعرع فى صميم البادية ، بين قبيلة بنى سعد وهى من أعرق قبائل العرب وأفصحها ، فنطق ــ كما يقول بودلى (١) ــ أول ما نطق ، وخطا أول ما خطا بين أسياد البادية ، هؤلاء الذين سيقاتلونه يوما ثم يخضعون له أخيرا ، ويحملون اسمه الى بقــاع من الأرض لم يكونوا ليعرفوها أو يسمعوا بها حتى يومهم ذاك ..

كيف أمضت الأم سنتيها هاتين ؟ تسكت كتب السيرة فلا تحدثنا بشىء من ذلك ، وكأنما أحس الرواة والمؤرخون بالذى شعرت به « آمنة » من أن دورها الجليل قد أوشك على الانتهاء ...

على أنا لسنا بحاجة الى من ينبئنا أنها أقامت فى دار « عبد الله » تنتظر عودة ابنها ليعمر هذا البيت الذى أوحش من بعد رحيله ..

وانتهزت الأحزان المطوية فى أعماقها ، فرصة وحدتها الموحشة اثر ذهاب

(١) الرسول : ٣٩

ابنها الى البادية ، فأرهقتها ارهاقا لم يكن لها عهد" بمثله ابَّان حملها ، وحين كان « محمد » معها ..

ولكن أوانَ فطامه كان يدنو رويدا ، وهذه هى تَشغل عن أشجان ذكرياتها بانتظار الحبيب الحى ، وتسلِّى همَّها بتمثله اذ يعود فيملأ دنياها أنسا ونورا

***

واستبطأت عودة « حليمة » بفتاها ، ولعلها همَّت غير مرة بأن تبعث اليها من يسترجعه ما دام قد استكمل عامى رضاعته . لكن « حليمة » لم تلبث أن جاءت ومعها العزيز المنتظر ، فلم تكد أمه المشوقة تراه ، حتى التزمته معانقة ، وتشبثت به فى حضنها كأنما لا تريد أن تبعده عن قلبها الخافق ، ثم أرسلته بعد حين ، وجعلت ترنو اليه معجبة بما بدا عليه من علامات الصحة والنضرة والنضج ..

واذ أحست «حليمة» اعجاب الأم بصحة الصبى العزيز ، راحت تحدثها عن جوِّ «مكة» ـ وقد كان اذ ذاك مرهقَ الحرِّ شديد الوطأة ـ ـ و « آمنة » تلقى اليها بعض سمعها ، أن كانت فى شغل بمناجاة الحبيب العائد

هنالك تشجعت « حليمة » وأفصحت عن مرادها قائلة :

ـ لو تركتِ بُنَىَّ عندى حتى يغلظ ، فانى أخشى عليه وبأَ « مكة » ! (١)

فأنكرت الأم الحنون ما سمعت ، ونظرت الى « حليمة » نظرة عتاب . كيف خطر لها أن « آمنة » تستطيع أن تفارق للمرة الثانية ، فلذة كبدها ونور عينيها وأنس دنياها ؟

لكن « حليمة » لم تيأس ولم تتراجع ، بل ألحت فى استصحاب الصبى ، متوسلة الى والدته بكل ما فى أمومتها من حنان وايثار ، مؤكدة لها أن من الخير لولدها أن يظل فترة أخرى بعيدا عن مكة ، وأن يعود معها فيمرح فى

---

(١) السيرة لابن هشام : ١٧٣/١

البادية ملء الصحة ملء الطلاقة والحرية !

وعادت الأم تنظر الى ابنها فتراه حقا قد أينع فى جو البادية الطليق ، ثم انثنت الى قلبها تسأله ان كان يطيق بعد الوحيد ؟ فاذا بهذا القلب النابض بالحب والحنو والايثار ، يدعوها الى مزيد من الاحتمال والتصبر ، فى سبيل ما تعلم حقا أنه أنفع لولدها وأفضل

وودعت « آمنة » ولدها للمرة الثانية ، وفى قلبها وحشة وشجن ..

وانطلقت به « حليمة » راجعةً الى مراعى بنى سعد ، والدنيا لا تكاد تسعها من فرط غبطتها وفرحها ، اذ كانت وقومها « شديدة الحرص على مُكثه فيهم ، لما رأوا من بركته » (١)

***

لكن ، لم تمض الا بضعة أشهر ، حتى عادت « حليمة » من تلقاء نفسها بالصبى المبارك الى أمه ، وهى بادية القلق ..

ولم تذهب فرحةُ اللقاء بعجب « آمنة » من تلك العودة السريعة ، فقالت تسأل « حليمة » :

ــ ما أقدمكِ به يا ظئرُ ، وقد كنتِ حريصةً عليه وعلى مُكثِه عندك ؟ (٢)

أجابت « حليمة » بعد تردد وتفكير :

ــ قد بلغ الله بابنى ، وقضيتُ الذى علىَّ ، وتخوَّفتُ الأحداثَ عليه ، فأديتُه اليك كما تحبين

ولم يُقنع جوابُها هذا « آمنة » ، بل لم يذهب بشىء مما خامرها من ريب وعجب ، فما زالت بحليمة حتى أنبأتها بالخبر :

قالت ــ فيما رُوِى عن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب :

« فوالله انه بعد مقدمنا به بأشهر ، مع أخيه ــ من الرضاعة ــ لفى بَهْم لنا خلفَ بيوتنا ، اذ أتانا أخوه يشتَدُّ ، فقال لى ولأبيه :

---

(١) السيرة لابن هشام : ١٧٣/١

(٢) السيرة لابن هشام : ١٧٤/١ ونهاية الأرب للنويرى ٨٤/١٦

ـــ ذاك أخى القرشى قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه ، فشقا بطنه ، فهما يسوطانه

فخرجت أنا وأبوه نحوه ، فوجدناه قائما ممتقعا وجهه . فالتزمته والتزمه أبوه ، فقلنا له :

ـــ مالك يا بُنى ؟

قال :

ـــ جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض ، فأضجعانى وشقا بطنى ، فالتمسا شيئا لا أدرى ما هو ..

فرجعنا به الى خبائنا ، وقال لى أبوه :

ـــ يا حليمة ، لقد خشيتُ أن يكون الغلام قد أصيب ، فألحقيه بأهله قبل أن يظهر ذلك به

فاحتملناه فقدمنا به .. ووالله انا لا نرده الا على جَدْع أنفنا » (١)

***

وأصغت الأم « آمنة » الى القصة دون أن تبدو عليها بادرةُ خوف أو قلق ، حتى فرغت « حليمة » من حديثها ، فألقت عليها السؤال :

« أفتخوفتِ عليه الشيطان ؟ »

أجابت حليمة من فورها :

ـــ نعم ..

فقالت « آمنة » :

« كلا والله ، ما للشيطان عليه من سبيل ، وانَّ لبُنىَّ لشأنا ، أفلا أخبرك خبرَه ؟ »

فهتفت « حليمة » :

« بلى »

هنالك حدثتها « آمنة » بما رأت وسمعت حين حملت به ، ثم ختمت

(١) السيرة لابن هشام : ١٧٤/١ — ونهاية الارب : ٨٤/١٦

حديثها قائلة :

« .. فوالله ما رأيتُ من حمل قط كان أخفّ من من حملِه ولا أيسر منه ، وقع حين ولدته وانه لواضعٌ يديه على الأرض رافعٌ رأسَه الى السماء .. دعيه عنك وانطلقى راشدةً » ..

فظهر على « حليمة » أنها تذكرت شيئا كان قد غاب عنها ، وهتفت قائلة :

« الآن فهمتُ ما لم أفهمه من قبل : ذلك أن نفرا من نصارى الحبشة رأوا ابنى محمدا معى حين رجعتُ به بعد فطامه ، فنظروا اليه وسألونى عنه ، وفحصوه مليا ثم قالوا :

ـ لنأخذنّ هذا الغلامَ فلنذهبْ به الى مَلِكنا وبلدنا ، فان له شأنا نحن أدرى به وأعرف

فاختطفته منهم ، وقد هاجنى ذلك على ردّه اليك ، وهممتُ أن أفعل ، لولا أن مضاربَ بنى سعد كانت أقربَ الىّ منك ، فعدوتُ نحوها ، ولم أشعر بالاطمئنان حتى دخلتُ به الحِمى »

ثم استعادت ذكرى بعيدة ، كانت قد نسيتها لطولِ المدى واستطردت تقول :

« وأذكر كذلك يوم انطلقت بولدى محمد من مكة لأول مرة ، فمر بى اليهود فسألتهم : ألا تحدثونى عن ابنى هذا ؟ وسردت لهم ما لقيت من بركته . فما راعنى الا أن قال بعضهم لبعض : اقتلوه . ثم سألونى : أيتيم هو ؟.. قلت وأنا أشير الى زوجى : لا .. هــذا أبوه وأنا أمه . فقالوا : لو كان يتيما لقتلناه » (١)

***

وأكثر المؤرخين المحدثين ــ من مستشرقين ومسلمين ــ يقفون عنــد قصة الملكين هذه موقف الانكار ، فاذا ووجهوا بالذى رواه (٢) « ابن

---

(١) طبقات ابن سعد : ١/٧١ قسم أول ــ ونهاية الارب : ٨٦/١٦
(٢) السيرة : ١٧٥/١ ؛ ونهاية الارب للنويرى : ٨٦/١٦

اسحاق » عن بعض أهــل العلم ، من أن الرســول نفسه حدث نفرا من أصحابه عن الملكين اللذين طهرا قلبه ، لاذوا بالقول بأن رواية الحديث ضعيفة السند ، ثم نقدوا المتن نفسه بأن الروايات تجمع على أن محمدا أقام ببنى سعد الى الخامسة من عمره ، وقصة الملكين هــذه قد حددت سنه بما دون الثالثة ، وأرجعته الى مكة بعد فطامه بأشهر . فبين الروايتين ــ كما يقول الدكتور هيكل ــ تناقض صريح

ثم يستطرد الدكتور هيكل قائلا :

« وانما يدعو المستشرقين ويدعو المفكرين من المسلمين الى هذا الموقف من الحادث ، أن حياة محمد كانت كلها حياة انسانية سامية ، وأنه لم يلجأ فى اثبات رسالته الى ما لجأ اليه من سبقه من الخوارق ، وهم فى هــذا يجدون من المؤرخين العرب والمسلمين سندا حين ينكرون من حياة النبى العربى كل ما لا يدخل فى معروف العقل ، ويرون ما ورد من ذلك ، غير متفق مع ما دعا القرآن اليه من النظر فى خلق الله ، وأن سنة الله لن تجد لها تبديلا ، غير متفق مع تعبير القرآن المشركين بأنهم لا يفقهون ، وأن ليست لهم قلوب يعقلون بها » (١)

والحق أن ضعف السند ، كان يعفينا من مثل هذا العناء فى نقد المتن ، فالحديث الذى أورده « ابن اســحاق » مروى عن « بعض أهل العلم » ويحسبه ابن اسحاق ، « خالد بن معدان الكلاعى » وخالد هــذا هو « أبو عبد الله الشامى الحمصى » المتوفى فى العقد الأول من القرن الثانى الهجرى ، وقد ساق الحديث مرسلا ، فلم يذكر فيه اسم الصحابى الذى نقله عن الرسول ..

ومعنى هذا أن الحديث خبرُ واحد ــ وخبر الواحد ، فيما قالوا ، لايفيد علما ولا ظنا ــ كما أنه حديث مرسل ، سقط فيه ذكر الصحابى ، مُجهَّل بقول ابن اسحاق : « عن بعض أهل العلم »

وهو بهــذا كله ، يأتى فى مرتبة من أضــعف مراتب النقل ، فلا يلزم

---

(١) محمد : ٧٣

بشىء ، ومن هنا لم تكن بنا حاجة الى التعرض لنقد المتن بما ذكروه من تناقض صريح بين زمن القصة ، وبين الرواية القائلة بأن محمدا بقى فى البادية حتى الخامسة من عمره ، اذ ليس ببعيد أن تكون « حليمة » عادت فأخذت ظئرها للمرة الثالثة ، متوسلة الى أمه بما اكتسب هناك من قوة وصحة ..

كذلك لم تكن بنا حاجة الى نقد الحديث بأنه يخالف معروف العقل ، وهو نقد لا يسلم من الاعتراض ، وأولى منه أن يقال أن الحادثة تخالف مألوف الناس ومعتادهم ، أما العقل فلا يحيل أن تشق بطن ويخرج منها عضو ، على مانشهد كل يوم فى جراحات الجسم ..

ولعل الذى يمكن أن يقال هنا فى اطمئنان ، هو أن القصة ــ سواء أجريت على لسان الرسول أم على لسان تابعى ــ فهى من قبيل التمثيل الذى يراد به نقاء السريرة وصفاء النفس ، وهذا قريب مما ذهب اليه « درمنجم » حين رأى الحادثة « لا تستند الى شىء غير المعنى الحرفى للآية القرآنية : ألم نشرح لك صدرك ، ووضعنا عنك وزرك ، الذى أنقض ظهرك »

ولا أستبعد مع هذا كله ، أن تكون « حليمة » قد روت الحادثة بعد الذى رأت من بركة رضيعها ، فليس بمنكر عندنا ، ولا مستبعد فى عقولنا ، أن تؤمن « حليمة » بأن هذا قد حدث فعلا ، بل انه ليتسق مع الذى اطمأن اليه أكثر المفكرين المعاصرين ــ وفيهم الدكتور هيكل ــ من « أنها وجدت فيه منذ أخذته بركة : سمنت غنمها ، وزاد لبنها ، وبارك الله لها فى كل ما عندها »

وكذلك يطمئن « بودلى » الى ما روى من « اعتراف قبيلة بنى سعد ، بأنهم وجدوا فيه منذ أخذوه بركة »

الكتاب السادس

الرحيـــــل

سفر إلى يثرب

لنرمق « آمنة » وهى تحتضن فتاها الوحيد اليتيم ، بعد أن بلغ مقامه فى البادية أقصى أمده ، وعادت به « حليمة » السعدية الى أمه فى البلد الحرام ، حيث مجد آبائه العريق ، ومجد موطنه العتيق

عاد فبدد بنوره ظلال الكآبة التى كانت تغشى دنيا « آمنة » فى وحدتها وترملها الباكر ، وأحسبها لم تكف عن التحدث اليه عن والده الغائب ، ووصف شمائله ، ورواية قصة فدائه ، وما كان معقودا عليه من آمال كبار

وقد بذلت الأم لولدها فى تلك الفترة ، أقصى ما يستطاع من عناية ورعاية ، أن كان وحيدها ، ومناط أملها ، ومعقد رجائها . ويعترف كتّاب السيرة بما كان لها من أثر جليل فى هذه المرحلة من عمر نبى الاسلام ، فيقول شيخهم « ابن اسحاق » :

« وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مع أمه « آمنة » بنت وهب فى كلاءة الله وحفظه ، ينبته الله نباتا حسنا »

وأثمرت العناية ثمرتها ، فبدت على « محمد » تباشير النضج المبكر ، ورأت فيه « آمنة » عندما بلغ السادسة من عمره ، مخايل الرجل العظيم الذى طالما تمثلته ، ووُعِدت به ، فى أحلامها ورؤاها ...

اذ ذاك أدركت أن الأوان قد آن ، لكى تؤدى واجبا مقدسا ، وتحقق رغبة طال عليها الانتظار ، فحدثت ابنها عن رحلة يقومان بها معا الى « يثرب » كى يزورا قبر الحبيب الراقد

وهش الابن لفكرة السفر ، وسره أن يصحب أمه فى زيارتها لمثوى فقيدهما ، وأن يتعرف — فى الوقت نفسه — الى أخوال أبيه المقيمين بيثرب ، وكانوا ذوى شرف هناك وجاه عريق ، ولعله سمع أمه غير مرة ، تردد قول الشاعر فى « أبى وهب بن عمرو: خال عبد المطلب بن هاشم» :

ولو بأبى وهب أنخت مطيـــــتى
غدت من نداه ، رحلهـا غير خائبِ

بأبيـــــض من فرعى لؤى بن غالب
اذا حصلت أنســـابها فى الذوائب

أبىٌ لأخـذ الضيم ، يرتاح للنـدى
توسـّط جـداه فروعَ الأطـايب

***

وكان الجو صيفا ، والشمس تلهب صخور مكة وتصهر رمالها ، حين بدأت « آمنة » تتهيأ لرحلة طويلة شاقة ، تجتاز بها الاميال المائتين التى تفصلها عن يثرب ، حيث يرقد « عبد الله » الذى لم تره منذ نحو سنوات سبع ..

ولم تكن تجهل مشـــقة الســـفر عبر الصحراء القـاحلة ذات الرمال المتحجرة ، ولا غاب عنها ما يتكبده الضاربون فى أحشاء البيداء بسهولها الموحشة وقفرها المرهوب ، لكن شوقها الى زيارة يثرب ، كان أقوى من أن تغلبه عقباتُ سفر هو فى الحقيقة قطعة من العذاب ..

وشغلت أياما بتجهيز راحلتها واعداد مئونة الطريق ، ثم زودت ناقتها بهودج من أغصان مجدولة ، ذى مظلة مرفوعة ، تحجب الشمس عن الابن العزيز

وأقامت بعد ذلك تنتظر أول قافلة تخرج من مكة نحو الشمال فى رحلة الصيف الموسمية ، فلما أذن المؤذن بالرحيل ، ضمت اليها فتاها وركبت راحلتها ، تصحبهما الجارية الوفية ، « بركة أم أيمن » (١)

***

وألقت «آمنة» نظرة وداع على دار عرسها التى جمعتها فترة بعبد الله ، والتى وضعت فيها من بعده ولدهما الوحيد ، ثم عرجت على الحرم فطافت

---

(١) طبقات ابن سعد • وانظر الزرقانى : ١٦٣/١ والنويرى : ٨٧/١٦

به داعية ، وانفلتت من بعد ذلك نحو الشمال ، حيث كانت القافلة تتهيأ للتحرك ، وقد علا رغاء الابل مختلطا بضجيج المسافرين ودعاء المودعين !

وسار الركب فى أول أمره بطيئا وئيدا كأنما يعز عليه أن يفارق الحمى الأمين والديار الغاليات ، حتى اذا توارت معالم «مكة» خلف الجبال الشم التى تحف بها ، استقبل الراحلون طريق الشـمال ، وحثوا الخطا قدر ما استطاعوا ، كيما يبلغوا سوق الشام فى ابانها ، ويعودوا الى حماهم الأمين والى الاهل والاحباب

ورفع الحادى عقيرته بالغناء ، يودع الديار التى خلفوها من ورائهم ، ويعد الابل بالراحة والظـل ، اذا هى سـارت حثيثا فبلغت بأصحابها ما يأملون . ورجّعت أرجاء البيداء صدى الحداء الحنون ، فرقّت قلوب الراحلين ، وسرت فى أبدانهم نشوة غامرة ، من شجن الذكرى ولوعة الفراق

وعطفت « آمنة » على ولدها فى حنو فياض ، ثم أغمضت عينيها تحلم باللقاء القريب !

وسـاعدها صمت الصحراء ، الا من رجع النغم ، على استرسالها فى الحلم ، فقطعت أكثر الطريق شبه غافية ، تنصت فى الحداء الى نداء شجى يتناهى اليها من بعيد ، فهفا قلبها الى الأليف النائى ، ورنت عيناها الى الأفق الشمالى ، حيث تراءت لها « يثرب » أشبه بواحة خضراء ، تحنو ظلالها الوارفة على أعز قبر ، ويؤوى ثراها الطيب أغلى رفات ..

فاذا جن الليـل وصـمت الحادى ونام الرفاق وهجع الكون ، ضمت « آمنة » وحيدها الى صدرها ، وأسلمت نفسها الى رؤاها تسرى بها نحو المزار ، وتستحضر لها روح « عبد الله » آيبة من مأواها البعيد المجهول ، لتحيى الزوجة الحبيبة الوفية ، وتبارك الابن الصغير العزيز !

***

وشارفت الرحلة منتهاها ، فجمعت « آمنة » نفسها وأقبلت على ولدها

تحدثه من جديد عن أبيه ، ثم تغريه بأن يتطلع معها الى المدينـة البيضاء التى بدأت تتكشف من وراء جبل « أحد » حيث ينبسط السهل وتطمئن الأرض ، ويتموج عشبها الأخضر، وتتراقص عليها ظلال النخل الباسقات ..

وأناخ الركب رواحله فى « يثرب » ، ريثما تزود بالراحة والتمر والماء ، ثم استأنف مسيره شمالا ، بعد أن ترك « آمنة » وولدها وجاريتها فى حمى « بنى النجار » ..

***

ولم يكد يستقر بها المقام بين ترحيب القوم واحتفالهم ، حتى أمسكت بيد غلامها ومضت تطوف بالبيت الذى مرض فيه أبوه ، وتحج الى القبر الذى حوى رفاته ، ثم خلّت بين ولدها وبين الحياة الجديدة مع أبنـاء أخواله ، فانطلقـوا به الى ملاعبهم ومغـانيهم ، يلعب ويمرح ، ويتعلم السـباحة مثلهم فى الميـاه الجارية ، على حين عكفت « آمنة » على قبر الحبيب ، تناجيه حينا ، وتبكيه أحيانا ، وهى على الحالين راضية مستروحة ، تجد من الأنس بقرب الفقيد ما يروى ظمأها ويريح شجوها

وطاب لها العيش هكذا شهرا كاملا . نفّست فيه عن حزنها المكبوت ، وأسعفتها عيناها بما شـاءت من دمع ، كما تمتع ولدها بالجو اللطيف ، وبصحبة رفاقه من بنى الخال

وودت « آمنة » لو طال بها المقام فى « يثرب » ، ولعلها فكرت ــ كما يقول بودلى ــ فى أن تبقى بها ، « لولا أن أسرة محمد مكية ، ومكة هى الموطن ، فلا بد من العودة اليها »

ولا يدرى أحد كيف أمضت « آمنـة » ليلتها الأخيرة قبـل أن تشد رحالها عائدة الى « مكة » ، وأغلب الظن أنها أفنتهـا فى مناجاة الحبيب الذى توشك أن تفارقه للمرة الثانية ، حتى اذا آن لها أن تمضى ، انتزعت نفسها قسرا من ذلك الجو المعطر بالذكرى ، وودعت مضيفيها شاكرة لهم ما لقيت ولقى ولدها من جميل ترحابهم وكرم ضيافتهم ، ثم ركبت راحلتها

وركب معهـا ولدها وجاريتها ، فعرجت على القبر تزور صـاحبها للمرة الأخيرة ، وتكلفت الصبر وهى تجامل القوم الذين صحبوها مودعين الى ظاهر المدينة ، ثم أسلمت نفسها الى أشجانها ، والناقة تمضى بها وبمن معها نحو مكة ، بلا حداء ..

الوداع

وإذ هم فى بعض مراحل الطريق بين البلدتين ، هبت ــ فيما يقال ــ عاصفة عاتية هوجاء ، أخذت تسفع المسافرين بريحها المحرقة ، وتثير من حولهم الرمال كأنه الشرر الملتهب . فتأخرت الرحلة أياما ريثما هــدأت العاصفة وسكنت ثائرتها ، ثم استأنف الركب سيره وقد شعرت « آمنة » بضعف طارىء ، مكّن له من جسمها ما كانت تجد من لذعة الفراق الجديد

ولم يجزع « محمد » أول الأمر لما بدا على أمه من اعياء ، بل رجا أن تزايلها وعكتها بعد أن همدت العاصفة ، أما « آمنة » فأحست أنه الأجل المحتوم ، وكانت بحيث يشــوقها أن تلحق بعبد الله ، لولا فرط تعلقهــا بولدها الوحيد اليتيم ..

وتشبثت به معانقــة وقد انهمرت الدموع من عينيها ، فأخــذ الصبى العزيز يجفف دمعها بيده الحلوة الصغيرة ، مستمرئا لذة الحنان الغامر ، وكاد ينسى فى نشوته رهبة الموقف ..

وفجــأة .. تراخت ذراعاها عنه ، فحدق فيها ، فراعه أن بريق عينيهــا يوشك أن ينطفىء ، وأن صــوتها يخفت رويدا رويدا ، حتى يصير الى حشرجة هامسة

هنالك تضرع اليها أن تنظر اليه ، وأن تكلمه ، فيقــال انها « نظرت لوجهه وقالت : (١)

بارك فيــكَ اللهُ من غلام
يا ابنَ الذى من حومة الحِمام
نجــا بعون الملك العــلام
فودِى غداةَ الضرب بالســهام

(١) الروض الانف للسهيلى ، وانظر فى الحاوى للفتاوى : ٢ \ ٢٢٢

ثم أمسكت تستريح ، فلما استردت أنفاسها اللاهثة همست فى حشرجة الاحتضار :

« كل حى ميت ، وكل جديد بال ، وكل كبير يفنى . وأنا ميتة وذكرى باق ، فقد تركت خيرا وولدت طهرا .. »

وذاب صوتها فى سكون العدم ، فما تكلمت بعدها أبدا ...

***

وخيم على الكون صمت رهيب ، مزقته بعد حين ، صرخة صبى مفجوع ، انحنى على جثة أمه فى العراء يناديها فلا تلبى نداء ..

والتفت الى « أم أيمن » يسـألها عن سر هـذه الحياة التى انطفأت ، والجسد الذى همد وبرد ، والصوت الذى فنى وذاب ، فضمته المسكينة الى صدرها ، ولم تملك الا أن تقول دون أن تعى :

« انه الموت يابنى » !

الموت ؟ !

ذاك الذى غال أباه من قبل ؟

ذاك الذى جرع أمه كأس الترمل ، فما طاب لهـا عيش ولا اندمل فى قلبها الجرح لمدى سبع سنين طوال ؟ !

ذاك الذى يطوى الاعزاء فى جوف الثرى ، فلا رجعة بعد ولا لقاء ؟ !

ذاك الذى يمضى بالمسافر الى حيث لا عودة ولا مآب ؟

وتلفت اليتيم حواليه حائرا ، فاذا الكون هامد موحش ، كأنما غشيته غاشية من الخوف والرهبة فى حضرة الموت !

ولاذت عيناه الضارعتان بالسماء ، فاذا بها واجمة ، ملفعة بزرقة كابية خرساء !

ومدّ بصره المجهد الى الأفق البعيد ، فاذا قطع ممزقة مشردة من غيوم شاحبة ربداء !

هنالك آب اليتيم الى « أمه » فجلس قريبـا منها يحدق فيها صـامتا

خاشعا ، على حين أخذت « بركة » تلف الجسد الراقد ، وتعصب الوجه الذابل ، وتغمض العينين المنطفئتين ..

وتبعها مطرقا مستسلما ، وهى تحمل الجثة الى قرية « الابواء » كيما تجهزها لضجعتها الأخيرة ، حتى اذا أوشك الثرى أن يغيبهـا ، اندفع وحيدها اليتيم نحوها فتشبث بها ، يريد أن يستبقيها أو يبقى معها !

وعلا نحيب القوم من اشفاق ورثاء ، وخلوا بينه وبين آمه ســاعة أو بعض ساعة ، ثم نحوه عنها فى رفق ، وأضجعوها فى لحدها ..

وهالوا عليها الرمال ..

عودة اليتيم

ووجمت أرباض « مكة » وهى تشهد الصبى الحزين الذى غادرها مع أمه منذ شهر وبعض شهر ، بادى الغبطـة والتهلل والاشراق ، يعود اليها اليوم وحيدا مضـاعف اليتم ، قد ذاق الحزن المر ، ورأى بعينيه مشـهد الموت فى أعز من له ، وبلا المأساة الفادحة التى طالما حدثته أمه عنها ، وهى تستعيد ذكرى أبيه « عبد الله »

وسوف تذكر « مكة » عودة « محمد » هذه ، يوم يخرج منها بعد نحو نصف قرن ، تحت جنح الظلام ، مهاجرا بدينه الجديد الى «يثرب» فى صحبة شيخ صديق ، وقريش من ورائه تعدو فى أثره وتلح فى طلبه ..

وكذلك سوف تذكر « مكة » عودة الصبى اليتيم هـذه ، يوم يرجع اليها من دار هجرته عام الفتح ، ويدخلها ظافرا منتصرا ليحطم الأصنام التى شوهت جلال الحرم ، ويهتف من أعلى البيت الحرام :

« الله أكبر ! »

فترجع أرجاء الجزيرة هذا الهتاف العالى ، ثم تتجاوب به آفاق الارض على مر العصور والأجيال ...

الكتاب السابع

الخالدة

١ ـ ذكرى باقية
٢ ـ وطيف لا يغيب
٣ ـ وصورة وضاءة عبر الاجيال

ذكرى باقيه

« .. ها هنا نزلت بى أمى..وفى
هذه الدار قبر أبى عبد الله »

(من حديث للرسول صلى الله
عليه وسلم لما رأى دار بنى عدى
ابن النجار ، بعد الهجرة ..)

الى هنا تنتهى حياة « آمنة » على سطح هذه الارض ، وينصرف عنها التاريخ حينا ليعود بعد نحو أربعة وثلاثين عاما فيفسح لها أعز مكان فى كتاب الخلود ، أمّا للنبى البطل ، الذى تركته وحيدا يتيما فى بادية الحجاز بين يثرب وأم القرى ، فما بلغ مبلغ الرجال حتى اختارته السماء للرسالة العظمى ، واصطفاه الله ليبعثه بالدين القيم الذى يتبعه اليوم ملايين البشر من شتى الاجناس فى مشرق الارض ومغربها

وقد عاشت « آمنة » أول ما عاشت ، ملء قلب ولدها العظيم ، يخفق لذكراها ويرق لها رقة تثير الشجن ، وتستدر عصىّ الدمع ..

ولقد تلقاه جده « عبد المطلب » بعد وفاتها ، وضمه اليه مسبغا عليه من عطفه وحنانه ما لم يسبغ مثله على ولده ، « فكان يقربه منه ويدنيه ، ويدخل عليه اذا خلا واذا نام فى فراشه »

ذكر « الواقدى » ـــ فيما نقله ابن سعد فى طبقاته ـــ أن عبد المطلب كان يوضع له فراش فى ظل الكعبة ، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج اليه ، لا يجلس عليه أحد منهم اجلالا له . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتى وهو غلام حتى يجلس عليه ، فيهم أعمامه بأن يؤخروه عنه فينهاهم عبد المطلب قائلا :

ــ دعوا ابنى ..
ثم يجلسه معه ويمسح ظهره بيده

وكفله عمه أبو طالب بعد وفاة جده ، « فأحبه حبا شـديدا ، فكان لا يفارقه ، ويخصه بالطعام ، حتى أن بنيه اذا أرادوا أن يتغدوا أو يتعشوا قال : كما أنتم حتى يحضر ابنى (١) »

وكان لمحمد من حنان « فاطمة بنت أسـد بن هاشم : زوج عمه أبى طالب » ثم من حب السيدة « خديجة » ولطف عشرتها وأنس صحبتها ، ما لا مطمع فيه لمزيد ، لكن شيئا من هذا كله لم ينسه ذكرى يتمه المر ، ولم يمح من خاطره مشهد أمه الغالية وهى تموت بين يديه فى الصحراء .

روى (٢) « ابن سعد » فى طبقاته ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما مر بالأبواء فى عمرة الحديبية قال : « ان الله أذن لمحمد فى زيارة قبر أمه . فأتاه ، وأصلحه ، وبكى عنده ، وبكى المسلمون لبكائه ، فقيل له فى ذلك ، فقال : أدركتنى رحمتها فبكيت » ..

وعن عبد الله بن مسعود أنه قال : « خرج النبى صلى الله عليه وسلم يوما وخرجنا معه حتى انتهينـا الى المقابر ، فأمرنا فجلسنا ، ثم تخطى القبور حتى انتهى الى قبر منها فجلس اليه فناجاه طويلا ، ثم ارتفع صوته ينتحب باكيا فبكينا لبكاء رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم ان رسول الله أقبل الينا فتلقاه عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : ما الذى أبكاك يارسول الله فقد أبكانا وأفزعنا ؟ فأخذ بيد عمر ثم أومأ الينا فأتيناه فقال : أفزعكم بكائى ؟ فقلنا : نعم يا رسول الله . فقال ذلك مرتين أو ثلاثا ثم قال : ان القبر الذى رأيتمونى أناجيه ، قبر أمى آمنة بنت وهب ، وانى استأذنت ربى فى زيارتها فأذن لى (٣) »

---

(١) النهاية لابن الاثير : ١٧١/٣ والسيرة الحلبية : ٢/١
(٢) ١/ ٧٧ قسم أول ، وانظر نهاية الارب ٨٧/١٦
(٣) صحيح مسلم : ١٠٥/١١ ، ١٠٨ وسنن أبى داود : ٧٥/٢٠ وأنظر أخبار مكة للازرقى ــ ص ٤٣٣

وهكذا شهدته الدنيا يلتفت أبدا الى تلك البقعة المهجورة حيث مضجع أمه، ويرنو اليها بقلبه على تطاول المدى وتنائي الأبعاد ..

وعرفت «قريش» منه ذاك وهي تعلن الحرب عليه وعلى من آمنوا معه، حتى ان «هند بنت عتبة» حين مرت بالأبواء مع جيش المشركين المتجه الى المدينة ليثأر لقتلى بدر، لم تر ما تؤذى به بطل الاسلام، أقسى من نبش قبر أمه «آمنة»، ولم تجد لقريش رهينة أعز ولا أغلى من بقايا الجثة الثاوية هناك. رووا عن هشام بن عاصم الأسلمى أنه قال:

«(١) لما خرجت قريش الى النبى صلى الله عليه وسلم فى غزوة أحد فنزلوا بالأبواء، قالت هند بنت عتبة لزوجها أبى سفيان بن حرب: لو بحثتم قبر آمنة أم محمد فانه بالأبواء، فان أُسِر أحدٌ منكم افتديتم كل انسان بارب من آرابها!؟»

لكن أبا سفيان لم يكد يذكر ذلك لقريش، حتى أخذ منها الفزع كل مأخذ، فصاحت بالرجل: «لا تفتح علينا هذا الباب» وكأنما روعها تمثلُ غضبة ابن آمنة والمسلمين للفعلة النكراء!

وانصرفت قريش عن الأبواء دون أن تجرؤ على العبث بحرمة القبر الذى استودعه الصبى اليتيم جثمان أمه منذ أكثر من أربعين سنة، ثم لم ينسها بعد ذلك أبدا ..

ولم تنسه جلائل الأحداث ولا كرّ الغداة ومرّ العشيّ، ذكريات أيامه الخوالى فى حضن أمّه الغالية، ومشاهدَ رحلته الأولى معها الى يثرب، بل تشبث بها خاطره وأبى أن يفلت شيئا منها. فعندما هاجر الى المدينة، مضى يطوف بالربوع التى شهدته - قبل نحو نصف قرن - صبيا خالى البال، ويستعيد ما كان له من مواقف هناك. حدثوا أنه صلى الله عليه وسلم لما رأى حى بنى عدى بن النجار قال: «ها هنا نزلت بى أمى .. وفى هذه الدار قبر أبى عبد الله» (٢)

---

(١) تاريخ مكة للأزرقى: ٤٨١ - وانظر السيوطى فى «الحاوى» ص ٢٣٣ ج ٢
(٢) الطبقات الكبرى: ٧٧/١ قسم أول - ونهاية الارب: ٨٧/١٦

ونظر الى أطم بنى عدى ، فرقَّ قلبُه وهو يقول :
« كنت ألعب مع أنيسة ــ جارية من الأنصار ــ على هذا الأطم ، وكنت مع غلمان من أخوالى . وأحسنتُ العوم فى بئر بنى عدى بن النجار »

كلا ، لم ينس محمد صلى الله عليه وسلم تلك الأيام الخوالى ، كما لم ينس الدار التى شهدت مولده ، وقد أغلقت أبوابُها بعد موت أمِّه ، وتُركت خلاء ..

وربما مر بها بين الحين والحين ــ أيامَ شبابه فى مكة ــ فوقف يسائلها عما فعلت بها الأيام ، ويتملى مشهد أمه حين كانت هناك ...

***

حتى هاجر من مكة وفيها المهد الحبيب ، فلما عاد اليها يوم الفتح وعلم أن عقيلا ابن عمه أبى طالب قد أخذ دار مولده ، كره صلى الله عليه وسلم أن يستردها منه ، كما كره للمهاجرين أن يرجعوا فى شيء من أموالهم أُخِذ منهم فى الله تعالى ، وهجروه لله (١)

فبقى بيت المولد لعقيل وولده من بعده ، حتى اشتراه «محمد بن يوسف» فأدخله فى داره التى يقال لها البيضاء ، فلم يزل كذلك الى أن حجت « الخيزران » ــ أم الخليفتين موسى وهارون ــ فجعلته مسجدا للصلاة ، وأشرعته فى الزقاق الذى يقال له « زقاق المولد » فحدثوا أن أهله كانوا يقولون بعد أن نقلوا منه :

ــ والله ما أصابتنا فيه جائحة" ولا حاجة ، حتى أُخرِجنا منه فاشتد الزمانَ علينا (٢)

---

(١) أخبار مكة للازرقى : ٤٥٧
(٢) النهاية لابن الاثير : ١٨٦/١ ــ والروض الانف للسهيلى : ١٠٧/١ ــ وأخبار مكة للأزرقى : ٤٤٦

طيف لا يغيب

« انى لاقوم فى الصلاة أريد أن أطول فيها ، فاسمع بكاء الصبى فاتجوز فى صلاتى كراهية أن أشق على أمه »

(حديث شريف)

طواها الثرى قبل أن يستكمل ولدها الوحيد عامه السابع ، ورأته الدنيا من بعدها ينعم بالحياة الزوجية السعيدة ، كما رأته من بعد ذلك مُصطفى للنبوة ، ويخوض معاركه التاريخية المظفرة ، ضد الوثنية والشرك والضلال ..

ولقد بقى طيفها الكريم يصحبه ما عاش ، وبقيت ذكراها تراوحه حيثما ذهب وأنى أقام ، فتستثير فيه أعمق عواطف البر والرحمة ، وترتفع بالأمومة عنده الى المقام الاسنى الذى لا يطاوله مقام ..

ذكرها فى مرضعته « ثويبة » مولاة أبى لهب ، فكان صلى الله عليه وسلم يَصِلها وهو بمكة ، كما كانت السيدة خديجة تكرمها ، فلما هاجر الى المدينة ظل يبعث اليها بصلة وكسوة ، الى أن جاءه خبرُ وفاتها سنة سبع ، عند مرجعه من خيبر ، فلما دخل مكة ظافرا بعد ذلك بعام ، لم ينس فى غبطته بالفتح الأكبر ، أن يسأل بمكة : ما فعل ابنها مسروح ؟ فقيل له : مات قبلها ، ولم يبق من قرابتها أحد (١)

وكذلك فعل مع « أم أيمن » حاضنته الحبشية التى رافقته وأمه فى رحلتهما الى يثرب ، وشهدت معه وفاتها بالأبواء ، فعاش صلى الله عليه

(١) الروض الانف : ٢/٩ ــ ونهاية الارب : ٨١/١٦

وسلم لايرى « أم أيمن » حتى يرق قلبه لذكرى الراحلة ويقول :
« هى أمى بعد أمى » (١)

***

وكان بره بمرضعته « حليمة السعدية » صدى لما يعمر قلبه الكريم من حب للأمومة فى أى صورة من صورها . حدثوا عن « أبى الطفيل » أنه قال : « رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يقسم لحما بالجعرانة وأنا يومئذ غلام أحمل عظم الجزور، اذ أقبلت امرأة دنت الى النبى صلى الله عليه وسلم فبسط لها رداءه ، فجلست عليه . فقلت : من هى ؟ فقالوا : هذه أمه التى أرضعته » (٢)

وفى العام الثامن للهجرة ، حين انصرف الرســول صلى الله عليه وسلم من غزوة الطائف منتصرا ومعه من سبى هوازن ســتة آلاف من الذرارى والنساء ، وما لايدرَى ما عِدتّه من الابل والشاء ، أتاه وفدُ هوازن ــ ممن أسلموا ــ فقال قائلهم :

« يارسول الله ، انما فى الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك » ــ وكانت حليمة من بنى سعد بن بكر من هوازن ..

فلمست ضراعتهم قلبه الكبير، واستجاب لمن استشفعوا بالتىأرضعته ، فقال وطيفُ أمّه يباركه :

ــ أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم . واذا ما أنا صليت الظهر بالناس فقوموا فقولوا : انا نستشفع برسول الله الى المسلمين ، وبالمسلمين الى رسول الله ، فى أبنائنا ونسائنا . فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم ..

فلما صلى رسول الله بالناس الظهرَ ، قام رجال هوازن فتكلموا بالذى أمرهم به ، فقال الرسول عليه الصلاة والسلام :

ــ أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم . فقال المهاجرون :

---

(١) الروض الانف : ٧٩/٢

(٢) رواه أبو داود فى سننه : ١١٩/٤

ـ وما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم ..

وقالت الأنصار :

ـ وما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم ..

واذ رأى عليه الصلاة والسلام تردد بعض القبائل ، مثل تميم وفزارة ، قال :

ـ أما من تمسك منكم بحقه من هذا السبى ، فله بكل انسان ست فرائض من أول غنم أصيبه ..

فردوا الى هوازن أبناءها ونساءها (١) ، لأن فيهن حواضن الرسول وعماته وخالاته من الرضاعة ..

***

وتمثل صلى الله عليه وسلم أمه « آمنة » فى شخص فاطمة بنت أسد ابن هاشم بن عبد مناف ، تلك التى رعته أيام صباه فى بيت عمه أبى طالب ، وكانت له من بعد أمه أما . ذكر « ابن سعد » فى طبقاته ، و « ابن هشام » فى السيرة ، و « أبو الفرج الأصبهانى » فى مقاتل الطالبيين ، عن ابن عباس أنه قال : (٢)

« لما ماتت فاطمة أم على بن أبى طالب ، ألبسها رسول الله صلى الله عليه وسلم قميصه ، واضطجع معها فى قبرها ، فقال له أصحابه : ما رأيناك صنعت بأحد ما صنعت بها . فقال : انه لم يكن أحد بعد أبى طالب أبر بى منها . انى انما ألبستها قميصى لتكسى حلل الجنة ، واضطجعت معها فى قبرها ليهون عليها »

***

وكذلك رأى ملامح من أمه الراحلة ، فى زوجه الرءوم خديجة رضى الله عنها ، تلك التى سكن اليها منذ بلغ الخامسة والعشرين من عمره الى أن لحقت بربها قبل الهجرة بثلاث سنين ، لم يستبدل بها سواها ولا ضم اليها

---

(١) السيرة : ٤/١٣١

(٢) الاصفهانى : مقاتل الطالبيين ص ٨ ، ٩ ط الحلبى وانظر الاستيعاب ، الجزء الثامن

زوجة غيرها ، ولا نسى لها طولَ عمره ، ما عوّضته من حنان الأمومة الذى افتقده منذ ودّع أمه فى الأبواء ..

***

أجل ، ذكر محمد صلى الله عليه وسلم أمه فى كل هؤلاء ، وتمثّلها فى بناته حين كبرن وصرن أمهات ، ورأى صورتها فى كل أمٍّ تحنو على ولدها ، فما عُرف عنه أنه صلى الله عليه وسلم كان ينفعل بمثل تلك العاطفة الغامرة التى كان يجدها أمام مشهد الأمومة ، حتى لقد عز عليه أن يجد ما يُمثّل به لأصحابه رحمةَ الله بعباده ، أقوى من حنو الأم : حدثوا أن سبيا قدم على النبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة « فاذا امرأة منهم قد تحلب ثديُها ، اذا وجدت صبيا فى السبى أخذته فألصقته ببطنِها وأرضعته . فقال النبى صلى الله عليه وسلم لأصحابه : أترون هذه طارحةً ولدَها فى النار ؟ أجابوا : لا ، وهى تقدِر ألا تطرحه . فقال : الله أرحمُ بعباده من هذه بولدها »

وما أرتاب فى أنه صلى الله عليه وسلم ، كان عامر القلب بذكرى أمه ، حين ارتقى بالأمومة الى ما فوق البشرية ، فوضع الجنة تحت أقدامها وجعل (١) البرَّ بها مقدّما على شرفِ الجهاد فى سبيل الله والدار الآخرة ، اذ جاءه « معاوية بن جاهمة السلمى » يستأذنه فى الخروج للجهاد ابتغاء وجه الله واليوم الآخر ، فلما سأله الرسول : أحيّة" أمك ؟ وقال : نعم ، أمره أن يرجع اليها فيبرها

وعاود معاوية استئذانه فى الخروج للجهاد ، فأعاد الرسول سؤاله عن أمه ، ثم أمره أن يرجع اليها فيبرها

فلما كانت المرة الثالثة ، وعاد معاوية يلح فى الظفر بشرف الجهاد ، كرر الرسول سؤاله : أحيّة" أمك ؟

---

(١) راجع « تقديم بر الوالدين على الجهاد » فى « الجهاد » بمفتاح كنوز السنة ص ١٣٤ ط ١٩٣٤

قال : نعم ..

فما كان منه صلى الله عليه وسلم الا أن قال : ويحك ! الزمْ رِجلَها فَثَمَّ الجنة !

وان الانسانية لتصغى اليوم ، وغدا ، الى قول الرسول الكريم :

« انى لأقوم فى الصلاة أريد أن أطوّل فيها ، فأسمع بكاء الصبى فأتجوز فى صلاتى كراهيةَ أن أشق على أمه » (١) فلا يغيب عنها أن تلمح طيف « آمنة بنت وهب » ملء ذلك القلب الكبير الذى ينبض بأسمى ما تعرف البشرية من عاطفة البِرّ بالأمومة وتكريمها ..

وأى مطمح للبشرية اذ تتسامى بالأم ، واهبة الحياة ، وراء الذى يقال من حديثِ ابن آمنة ، المصطفى بشراً رسولا :

« لو أدركتُ والدىَّ أو أحدَهما وأنا فى صلاةِ العشاء ، وقد قرأتُ فاتحة الكتاب ، تنادى : يا محمد ، لأجبتها : لبيكِ ! » (٢)

(١) صحيح البخارى : ٦٥/١٠

(٢) رواه البيهقى فى شعب الايمان ، بسند فيه يس بن معاذ ، ثم قال : يس بن معاذ ضعيف. وانظر السيوطى فى « الحاوى » جـ ٢٣٣/٢

عبر الأجيال

تتباهى بك العصـــور وتسمو
بك عليـــاء بعـــدها عليـــاء
فهنيئـــا به لآمنـــة الفضــ
ـل الذى شرفت به حـــواء !
(البردة)

ولقد ثوى الرسول ــ بعد أن أدّى رسالته ــ فى ثرى « يثرب » كما ثوى أبوه من قبل ، وآب الى المصير الذى يئوب اليه كلُّ حى : « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل » ولكنه عاش ملء الحياة فى حساب الانسانية والتاريخ ، وفى قلوب هذه الملايين ممن آمنوا برسالته ، وستظل الدنيا أبدا خاشعة أمام ذلك البطل الرسول الذى لم يكد يهتف هتافه الخالد : الله أكبر ، « حتى كان النسر الرومانى يترنح ثم يتمرغ فى التراب لآخر مرة » واذا العرب الجفـاة البـداة الذين لم يكونوا يخرجون من جزيرتهم الا لرحلتى الشتـاء والصـيف ، يطـأون هـذا النسر بالأقدام ، ويرثون عروش الأكاسرة وتيجان الفراعين ، ثم يندفعون شرقا حتى يبلغوا بالرسالة المحمدية أسوار الصين ، وينطلقون بها غربا حتى يصلوا الى ساحل المحيط الأطلسى ليشيدوا لدينهم دولة اسلامية فى أسبانيا ، معقل الكاثولوكية المتعصبة ، ثم يغذون السير شمالا حتى يقرعوا أبواب « فيينا » عاصـمة امبراطورية النمســا ، ذات السلطان فى قلب أوربا المسيحية

أجل ، وستظل العقول أبدا حيرى أمام عظمة ذلك الانسان الذى ولدته أمه « آمنة بنت وهب » بشرا سويا : يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، ويذوق مرارة اليتم ولوعة الثكل ، ويحب ، ويتزوج ، ويلد ويموت ، شأن كل بشر ، ومع ذلك استطاع أن يصنع تاريخ البشرية كلها منذ مطلع القرن السابع الميلادى ، وأن يقرر مصاير دول عظمى وشعوب عريقة ،

ما كانت لتعرف شيئا عن شبه الجزيرة القاحلة الجرداء ، أو تحس وجودا لأهلها الذين يتنقلون على الابل بين فيافيها المقفرة وصخورها العارية ..

وهذا « كيتانى » الذى وُلد وشب فى جوار الفاتيكان وحِمى القديس بطرس ، يشد رحاله الى بلاد العرب فى صدر القرن الرابع عشر الهجرى ، لعله يكشف هناك عن سر خلود ذلك الراعى اليتيم ، وتعلق أتباعه به الى حد لا يعرف التاريخ له مثيلا ..

وهذا مستشرق آخر ، يمسك قلمه ليتساءل فى دهشة وعجب ، عن المعجزة التى جعلت من ابن « آمنة » القرشية آكلة القديد ، بطل الأبطال كما وصفه « كارليل » ، رغم كونه النبى الأوحد بين أنبياء العالم ، الذى وُلد فى ضوء التاريخ الكامل ، ولم يأت بغير كتاب عربى مبين ، يَصِرُّ على بشريته ، ويُنحِّى عنه كلَّ ما حف بابن مريم قبله من قداسة وألوهية

وهل عرفت الدنيا ابن أنثى قبل محمد أو بعده ، يغدو سلوكه اليومى — كما يقول هوجارت — سواء فى الأمور الخطيرة أو الأمور التافهة ، القانونَ الذى يرعاه الملايين من أتباعه بكل دقة ، ويقلدونه عن يقين وايمان الى أيامنا هذه ؟

« كلا ، ولم يحدث أن اعتبر شخص واحد ، فى أية طائفة من طوائف الجنس البشرى ، المثل الكامل للانسان ، فقلّدت أفعاله بتمام الدقة ، كما حدث لمحمد بن عبد الله ، الذى وضعته آمنة بنت وهب كما تضع كل أنثى من البشر » فى فجر يوم من أيام ربيع ، بجوار البيت العتيق ، ثم عاشت له حتى بلغ السادسة من عمره ، فسعت به الى قبر أبيه بيثرب ، ثم خلّفته وحيدا فى الطريق الى مكة !

***

ولم تدر « بركة » وهى تودع الجسدَ الساكن ، تلك الحفرة النائية فى صحراء الحجاز ، أن الراحلة قد تركت وراءها ذكرا عريضا ممدودا يقهر الزمن ويغلب الفناء ، ولا أحست وهى تبكى سيدتها فى ذاك القفر الموحش،

أن قوما ممن آمنوا بابن السيدة آمنة ، قد زاروا قبرها بعد أعوام ، فخيّل اليهم أن الجنّ تنوح عليها منشدة (١) :

نبكى الفتاةَ البرّةَ الأمينهْ
ذات الجمال ، العفّةَ الرزينه
زوجة عبد الله والقرينهْ
أمَّ نبى الله ذى السكينه
لو فُوديتْ لفوديت ثمينه
وللمنايا شفرةٌ سنينه
لا تُبقينْ ظاعنا ولا ظعينه
الا أتتْ ، وقطّعت وتينه

ولم يُقدَّر أحدٌ ممن شهدوا رقدتها فى مضجعها الأخير بالأبواء ، أن سوف يأتى حينٌ من الدهر تُبعث فيه الراقدة ، ثم لا يموت لها ذكرٌ من بعد ذلك أبدا ، بل تظل صورتها تتنقل عبر الأجيال باهرة السنا والبهاء ، ويظل اسمها خالدا على مر العصور والأدهار ، يحف به جلالُ أمومتها العظمى التى لبثت — وسوف تلبث أبدا — تستثير أنبل مافى وجدان المؤمنين من انفعال ، وتلهم شعراءهم روائع القصيد ، وهذه الدنيا تصغى فى الليلة المباركة من ربيع كل عام هجرى ، الى هتاف المحتفلين بذكرى الساعة الغراء التى قامت فيها « آمنة » عن ولدها سيد البشر :

كيف ترقى رقيّك الأنبياءُ
يا سماءً ما طاولتها سماءُ
لم يساووك فى علاكَ وقد حا
ل سنى منكَ دونهم وسناء
انما مثّلوا صفاتك للنا
س كما مثّل النجومَ الماءُ

(١) رواه السهيلى فى الروض الانف ، ونقله السيوطى فى الحاوى للفتاوى : ٢٢٢

تتباهى بك العصـــورُ وتســـمو
بكَ عليـــاء بعدها عليـــاء
فهنيئـــا به لآمنـــةَ الفضـــ
ـــلُ الذى شرفت به حـــواء
يوم نالت بوضـــعه ابنةُ وهب
من فخـــار مالم تنـــله النســـاءُ

***

سلام على « آمنة » سيدة الأمهـــات ، ووالدة النبى المبعوث بآخر رسالات السماء ..

فهرس

صفحة

طبـع
بمطابع دار الهلال


Bibliotheca Alexandrina
0609742